الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جايعة أبي بكر بلقايد -تلمسان

كلةي الآداب واللغاتّ

قسم اللّغة العربية وآدابها

مذكرةّ مقدمة لنيل رهّادة الماةستير في الأدب الأندلسي والحضاسة المتوسطيّة

الوصيّة في الأدب الأندلسي

وصيّة لسان الدّين بن الخطيب لأولاده

-دراسة حضارية فنّية-

إعداد الطالبة: بغدداي بشرى

إشراف الأستاذ الدكتور: كروم بومدين

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د.شايف عكاشة	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيساً
أ.د.كروم بومدين	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفاً
أ.د عباسّ محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوًا
أ.د زمري محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوًا
د.ابن هاشم خناتة	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة تلمسان	عضوًا

السنة الجامعية: 1431-1432هـ/2010-2011م

إهداء

ذا البـ يدهأهحث إلى:

أمّي الغالية ..

وأبي العزيز...

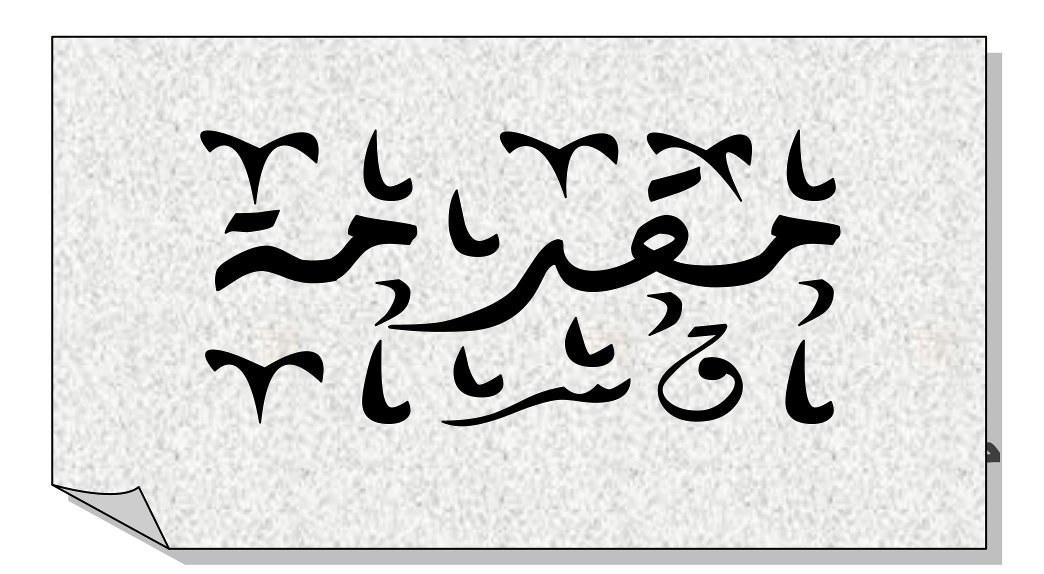
بغدادي

كلمة شكشد وعشفان

لـ ـ عـ ـم الشّـرف أأ أتوجّـــه بهـــذه‌اع لـــة المتواضـــعةعالتـــــ ـ أضـمنهّا عطاططنـ اعـ وفــــائق دقــــ ديريـ واحترامـــ ـ، وجزيـــل شكشك إلى من أحـاطني

كما لا فوتني مـ لال هــذه الكلمـــة أأأأتقــدّم بشــكري ي إلـــى كــلّ مــن ساعدني فـ إ نـ از هذا لن مولـ ن ن ن ن نسي ـى الأســـــــاتذة الّــــــذ يي ســــقومونةّ، والّـــــذي ســـت كملاحككوكــــاتهم

بسم الله الرّحمن الرّحيم


مقدمة

مقـدمـة

بسم الله الّذي تتمّ بنعمته الصالحات، والحمد لله، والصّلاة والسلام على أشرف الخلق سيّدنا محمد ع وعلى آله وصحبه، وبعد:

فالأندلس تمثّل بتاريخها الحافل وتراثها الزاخر قصّة حضارة عظيمة، ومجد خالد، وماض تليد، وذلك لما قدّمته للبشرية من خدمات جليلة وعطاءات جمّة نتيجة ذلك النتاج الفكري والثقافي الّذي خلّفه الأندلسيون، فكان الأدب إحدى الصور الّتي تجلّى فيها هذا العطاء، وكانت الوصيّة أحد فنونه التي خاض فيها الأندلسيون حكّاما، أو خلفاء، أو وزراء، أو أدباء، أو فقهاء...، والتي ضمّنوها مختلف أفكارهم وقيمهم وخبراتهم التي استقوها من ظروف حياتهم الخاصة والعامّة، لتتواصل عبرها الأجيال من السّلف إلى الخلف.

ويعتبر ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب من أبرز الشخصيات التي جاد قلمها بكثير من الوصايا جودة وكمّا، كانت ثمرة جهوده الفكرية وسعة آفاقه العلمية، وإلمامه الواسع بكثير من المعارف وامتلاكه المهارات السياسية والأدبية، وتنوّع تجاربه الّتي عاشها، فأراد نقلها إلى أهله وغيرهم.

ومن هنا جاءت الرغبة في الوقوف على آثار إبداع الأندلسيين في هذا الفن، وبخاصة لسان الدين بن الخطيب، فوسمت هذه الدراسة بعنوان: "الوصية في الأدب الأندلسي وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده -دراسة حضارية فنّية-"، وهذا لشغفي بمطالعة النصوص التي تتوفّر على النّصيحة والموعظة، وكذلك لقلّة عناية الباحثين بهذا الفن الأدبي، وبخاصّة في الأندلس، كون العديد منهم لم يخصّوه كغرض أدبيّ مستقلّ بذاته، عدا ما ورد في طيّات بعض الكتب

والدراسات؛ كتلك التي حملت على عاتقها البحث حول فنـون النّثـر الأدبي الأندلسي وخصائصه الفنّية ومنها: "النّثر الأدبي في الأندلس في القرن الخـامس مضامينه وأشكاله" لعليّ بن محمّد، و"النّثر الفنّي عند لسان الدّين بن الخطيـب" لعبد الحليم الهروط، و"فنون النّثر الأدبي في آثار لسان الـدّين بـن الخطيـب المضامين والخصائص الأسلوبية" لمحمّد مسعود جبران، والتي أفادتني في إنجاز هذه المذكّرة.

فكانت الغاية من هذه الدراسة البحث عن أهم الأغراض الّتي طرقها هذا الفن في بلاد الأندلس ومحاولة استجلاء أهم الخصائص الفنية والأسلوبية واللّغوية التي تتميز بها الوصيّة كغرض أدبيّ مستقلّ بذاته، وكذلك قيمتها الحضارية.

وهكذا اقتضت الدّراسة الاستفادة من بعض المناهج النقدية كالوصـفي والتحليلي لاستقراء وسبر أغوار مضامين الوصـايا، والنفسـي والاجتمـاعي للكشف عن أهمّ المؤثّرات النفسية والظّروف الاجتماعية التي رافقت الموصـي خلال تحبيره لمختلف وصاياه.

وقد قسّمت هذا العمل إلى مدخل وثلاثة فصول وخاتمة:

تناولت في المدخل مفهوم الوصية لغة، ثمّ ماهية الوصية الفقهية والأدبية لتوضيح الفرق بينهما، أتبعته بلمحة تاريخية عن تطوّر الوصيّة في الأدب العـربي القديم لتبيان تواصل هذا الفن الأدبي بين الشرق والأندلس.

ثم تطرّقت في الفصل الأول إلى أهمّ الأغراض التي طرقتها الوصـــية في الأدب الأندلسي، مع استحضار بعض النّماذج منها على سبيل المثال.

أمّـــا الفصل الثاني فقد خصّصتـــه لمعالجة الموضوعات التي ضمّنهـــــا ابن الخطيب وصاياه، والتي يبدو أنّه استمدّها من تجاربه السياسية والصّـــوفية، ومختلف الظّروف التي ألَمّت به.

وأمّا الفصل الثالث فقد حاولت فيه الوقوف على مضمون وصيّة لسان الدّين بن الخطيب لأولاده من حيث المعنى والمبنى، مع محاولة إبراز القيمة الفنّية والحضارية لهذه الوصيّة.

ثمّ أنهيت البحث بخاتمة تضمّنت أهمّ النتائج المتوصّل إليها.

وفي الأخير، أسأل الله التوفيق والسّداد، عليه توكّلت وإليه أنبت، وهو نعم المولى والنصير.

بغدادي بششى
تلمسان يوم: الأربعاء 02 جمادى الأول 1432هـ 06 أبريل 2011



مففوم

الوصيد ولمحد تاريخيةتن نعط وّر ها في الأدب

الـ ربي

(االلمـللصرلـالجاهليلإلى ا للباسي)

الدمخل: مفهوم الوصية ولمحة تاريخية عن تطوّرها في الأدب العربي (من العصر الجاهلي إلى العبّاسي)

تزخر كتب التّراث في الآداب العربية والأجنبية بكثير من الوصايا، باعتبار أدب الوصيّة فنّا قديما اقتضت الضّرورة وجوده لحاجة النّاس إليه تواصلا وانتفاعا، فماهي الوصيّة؟

1- مفهوم الوصية:

أ- لغة:

الوصية من وصّى، وهي مِن وصَى: كَوعَى: خَسَّ بَعد رِفعَةٍ واتّزن بعد خفّة، واتصل وَوَصَل الأَرض وَصْيًا وَوُصِيًّا وَوَصَاءً وَوَصَاءَةً: اتَّصَل نبَاتها.

والاسم: الوَصَاةُ والوِصَايَة والوَصِيّة: وهو الموصَى به أيضا: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]؛ أي: يفرض عليكم، قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾[2]؛ أي: أَوْصَى أَوّلُهم آخرَهم.

والوَصَاة والوَصِية: جريدة النّخل يحزم بها، ووَصَى وَوَصِيٌّ ويَوَصِّي: طائر[3].

وقد ورد في لسان العرب: أنّ وَصِيَ: أَوْصَى الرّجل وَوَصَّاه؛ عَهدَ إليه[4].

---

1)- سورة النساء، الآية: 11.

2)- سورة الذّاريات، الآية: 53.

3)- القاموس المحيط: مجد الدين يعقوب محمد الفيرزبادي، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1417هـ-1997م، مادّة (و ص ي).

4)- لسان العرب: أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار صادر بيروت- لبنان، ط3، 1414هـ/1994م مادة (وصي).

ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾[1]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[2].

وَالوصيّة ما أَوْصَيت به، وسميت وَصية لاتصالها بأمر الميت.

والوصِيُّ: الذي يُوصِي والّذي يُوصَى له، وهو من الأضداد، والأنثى: وصِيٌّ، وجمعها جميعا أوْصِيَاء، ومن العرب ما لا يثنّي الوَصِيّ ولا يجمعه جميعا[3].

ب- الصيةو الفقةيه:

اختلف تحديد مفهوم الوصية عند الفقهاء؛ فهي "تمليك بعد الموت"[4] أو "عهد خاص مضاف إلى ما بعد الموت"[5]، وإن تغيرت صياغة المفهوم فهي تشمل معنى الإيصاء، ولكنها تأخذ أشكالا متعددة: "قد تكون تمليك عين أو منفعة، وقد تكون جعل ولاية أو سلطة أو وكالة، وقد تكون إبراء لدَيْن، أو

---

1)- سورة الذّاريات، الآية: 53.

2)- سورة ياسين، الآية: 60.

3)- لسان العرب: ابن منظور، مادة: وصي.

4)- حاشية رد المحتار على الدر المختار: شرح تنوير الأبصار فقه أبي حنيفة، ابن عابـدين، دار الفكـر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، (د. ط)، 1421هـ-2001م، 8: 177.

5)- نيل الأوطار: شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد المختار، محمدى بن علي بن محمد الشـوكاني (ت.1255هـ)، دار الحديث، القاهرة- مصر، (د.ط)، 1297هـ، 5: 33.

إسقاطا لحقّ، وقد تكون عهدا وإذنا واستدعاء لتجهيزه وصلاته ورد أماناته وغير ذلك مما يجوز في الوصية العهدية"[1].

وقد اقترن هذا التمليك أو العهد بالموت فهي "الأمر بالتصرف بعد الموت"[2]، ويكون هذا التصرف في المال بعد وفاة الموصي؛ أي المال الموروث أو التركة.

وبما أن الإنسان فطر على حب المال والشهوات والتملك، فالإسلام شرع الوصية من أجل تحقيق الخير والمصالح المختلفة التي تشمل الفرد والمجتمع وذلك بمساعدة المحتاجين، وتعاون الأفراد وتضامنهم في استخدام مال الموصي في ضروب الحياة المختلفة.

والدليل على مشروعية الوصية ما ورد في الكتاب والسنة والإجماع، فمن آيات كتاب الله العزيز التي تبين وجوب الوصية قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[3]، وقوله أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي

1)- الوصايا والأوقاف في الفقه الإسلامي: محمد كمال الدين إمام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، (د.ط)، 1418هـ-1998م: 30.

2)- كشاف القناع: عن متن الإقناع، منصور يونس البهوتي (ت.1051هـ)، مكتبة النصر الحديثة، الرياض- السعودية، (د.ط)، (د.ت)، 4: 330.

3)- سورة البقرة، الآية: 180.

ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، وأما في السنة فقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما حق امرئ مسلم أن يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده"[2].

حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا زكرياء بن عدي، حدثنا مروان عن هشام بن هشام، عن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: "مرضت فعادني النبي ع، فقلت يا رسول الله ادع الله على أن لا يردني على عفتي، قال: "لعل الله يرفعك ويرفع بك ناسا"، فقلت: أريد أن أوصي، وإنما لي ابنة: قلت أوصي بالنصف؟ قال: "النصف كثير" قلت: فالثلث؟، قال: "الثلث والثلث كثير أو كبير"، قال: فأوصى الناس بالثلث، فجاز ذلك لهم"[3].

وبما أن الكتاب والسنة قد أوجبا الوصية، فإن الصحابة والتابعين كانوا منساقين إلى تنفيذها، طائعين مستخدمين ما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد روي عن تاريخ الصحابة نماذج من وصاياهم، فقد أوصى أنس ابن مالك، وأوصى عبد الله بن مسعود، وأوصى أبو الدرداء وغيرهم كثيرون[4]، ومنه فقد أجمع على مشروعية الوصية.

---

1)- سورة المائدة، الآية: 109.

2)- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي رحمه الله تعالى، ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضيعه وشرح ألفاظه وحمله وخرج أحاديثه في صحيح مسلم، ووضع فهارسه: مصطفى ديب البغا، دار الهدى: عين مليلة- الجزائر، (د.ط)، 1992م، 3: 1007، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث.

3)- المصدر نفسه، 3: 1005، كتاب الوصايا، باب وصية الرجل مكتوبة عنده.

4)- ينظر؛ الوصايا والأوقاف في الفقه الإسلامي:محمد كمال الدين إمام: 37.

ج- الصيةو الأدبية:

هي ما يقدمه إنسان لإنسان من نصائح ومواعظ ضمن مجموعة من الأوامر والنواهي، وقد تأتي على شكل شعر أو نثر[1]، وهي أيضا: "نوع من الأدب، غايته التوجيه والإرشاد، والحث على اكتساب المحامد، أو التبصير بحسن السياسة، أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق"[2]، ولهذا أطلق عليه بعض الدارسين والنقاد مصطلح "الأدب التهذيبي"[3].

والوصايا الأدبية هي جسر يربط بين السلف والخلف، وذلك لما يمد الأول الثاني من خبرة وتجربة في الحياة وطريقة الإقبال عليها، وهذا نتيجة لما واجه الموصي في حياته من اليسر والعسر، حيث تكون "خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤونه وشجونه، وآخر ما يقدمه إلى أبنائه وذويه في حياته أو بنهايتها بعد أن اختبر الحياة بكل ما فيها من حلو ومر"[4].

والتواصل بين الموصي والموصى إليه لن يكون إلا عن طريق النصح والإرشاد والوعظ، وذلك بالدعوة إلى الاستفادة من التجارب السابقة والاقتداء

---

1)- ينظر: وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية، روناك توفيق علي النورسي، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ط1، 2007م: 12.

2)- أساليب النثر الفني: لطيف محمد العكام، مطبعة الآداب، النجف، (د.ط) 1974م: 105، باب الوصايا.

3)- الأدب في التراث الصوفي: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة غريب، مصر، (د.ط)، (د.ت): 73.

4)- أدب العرب في عصر الجاهلية: حسن الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط3، 1417هـ–1997م: 271.

بالأحسن، والتحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة لتفادي الوقوع في الأخطـــاء والزلل، فهي بذلك تساعد الفرد في التغلب على الصعاب، وترشده نحو الأفضل في الحياة.

وهكذا فالوصية تسهم في بناء مجتمع راق، لأن صلاح المجتمع من صلاح الفرد، وفساد المجتمع من فساد الفرد، فهي تعد "لونا من ألوان النقد الاجتماعي التي يسعى من خلالها الموصي إلى إبعاد المجتمع عن حياة الرذيلة إلى حياة الفضيلة، وإعطاء صورة للنموذج الإنساني لما تحمله من قيم ومبادئ أخلاقية سامية ودلالات نفسية وفكرية"[(1)].

وتتميز الوصايا الأدبية بصدق العاطفة وقوتها وذلك من خلال ما يريده الموصي للموصى إليه من خير وبحث عن الأفضل، كما تتميز بأسلوب فني خاص؛ فهي "التي تكون قد نبعت من الموصي من خلال تجاربه النظرية والعلمية بأسلوب فني متميز يميزه عن غيره من الوصايا العادية"[(2)].

الفرق بين الخطبة والوصية: تشترك الوصية مع الخطبة في " توجيه المتلقي إلى الطريق الصحيح وردعه عن الضلال والفساد، إلا أنهما تختلفان من حيث المتلقي؛ فالخطبة تكون على ملإ من الناس حتى تعم الفائدة، على حين نجد الوصية غالبا ما توجه إلى إنسان معين ولا حاجة لوجود جمهور بجانب الموصى

---

1)- وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية: روناك توفيق علي النورسي: 15.

2)- النثر الفني في العصر الجاهلي: هاشم صالح مناع، دار الفكـــر العـــربي، بـــيروت- لبنـــان، ط1، 1993م:107.

إليه، في الوقت ذاته لا يمنع من وجود بعض الناس إذا دعت الضرورة، وربما تكون هذه الوصية لشخص آخر في زمن آخر إذا توافقت المناسبة"[1].

كما أن أغراض الخطبة تتمثل في إصلاح ذات البين، والتحريض على القتال، والمفاخرة بالأنساب وغير ذلك، أما الوصية فغرضها النصح والإرشاد بالشعر أو النثر أو بهما معا، إضافة إلى أنها تتميز بأسلوب فني خاص.

2- تطور الوصايا مالعنصر الجلهاي إلى العباسي:

تاريخ الوصية قديم جدا، وهذا لما حفلت به الرسالات السماوية من وصايا، إضافة إلى أن الإنسان منذ وجوده كان بحاجة إلى نصح وتوجيه حتى يتجنب ارتكاب الأخطاء، ومن ذلك الوصايا التي رويت عن آدم لبنيه منذ حضرته الوفاة[2]، ووصية نوح عليه السلام لابنه[3].

ويمتد تواصل الوصية وتطورها عبر العصور الأدبية، فقد زخر الأدب الجاهلي بوصايا عديدة عكست وجود الإنسان العربي في الجاهلية في سلمه

---

1)–النثر الفني في العصر الجاهلي، هاشم صالح مناع: 107–108.

2)– المعمرون والوصايا: أبو عامر سهل بن محمد السجستاني (ت.135هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، (د.ط)، (د.ت): 1.

3)– محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والاختبار: محي الدين بن عربي، دار صادر بيروت– لبنان، مجلد 2، (د.ط)، (د.ت): 417.

وحربه فبينت علاقته بمجتمعه[1]، من حيث إخلاصه له، وكان ذلك بالدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق، والحفاظ على طبائع العرب وشيمهم، ونشر الموعظة لأخذ العبر عن طريق نقل تجارب الحياة باستعمال الحكم والأقوال المأثورة.

وكانت هذه الوصايا موجهة من الآباء إلى الأبناء، وأخرى موجهة من سيد القوم إلى عشيرته، وغيرها من أم إلى ابنتها... فمنها ما أتت في قالب شعري، وأخرى في قالب نثري.

ومن الوصايا الشعرية: وصية عبد قيس بن خفاف البرجمي لابنه جبيلة[2]، وكذلك وصية الأعشى لابنه وهو يفتخر بقومه[3].

ومن أحسن الوصايا الشعرية في العصر الجاهلي وصية عمرو بن الأهتم[*]، حيث يقول:

لقد أوصيت ربعِيَّ بن عمرو إذا حزَبت عشِيرتك الأمُور
بأن لاَ تُفسدنَّ ما قد سعَيْنا وحِفْظ السُورَة العُليا كَبِير

---

1)- ينظر: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص: حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط2، 1443هـ-2003: 08.

2)- المفضليات: المفضل محمد بن يعلى بن عامر بن سالم الضبي الكوفي (ت.168هـ)، تحقيق: قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ط1، 1998م: 214.

3)- الديوان: ميمون بن قيس بن جندل بن ثعلبة الوائلي الأعشى (ت.7هـ)، شرح يوسف شكري بركات، دار الجيل، بيروت- لبنان: 169.

*)- كانت هذه الوصية من أروع الوصايا في العصر الجاهلي والتي سمعها الرسول ε فقال: "إن من الشعر لحكما و إن من البيان لسحرا"، وقد ورد في الأدب المفرد: البخاري، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الحديث، القاهرة مصر، (د.ط)، (د.ت)، ورد برقم 872، برواية البخاري.

وإن المجـــد أوَّلـــه وعُـــور ومصـــدر غَيِّـــه كـــرم وخـــير
وإنَّك لن تنال المجـــدَ حتَّـــى تَجود بما يَضِـــنٌّ بـــه الضَّـــمير
بنفسِك أَو بمالِك فِي أُمـــورٍ يَهاب رُكوبَها الـــوَرِع الـــدَّثُورُ
وجاري لا تُهينَنْه وَضَـــيْفي إذا أمْسَـــى وَرَاء البَيـــتِ كُـــورُ
يَؤُوب إليك أشعث جَرفَتْـــهُ عَـــوَانٌ لاَ يُنـــهْنِهُها الفُتُـــور
أَصِبه بِالكَرامَـــة وَاحْتَفظْـــهُ عَلَيـــك فَـــإن مَنطقـــه يَسِـــيرُ
وَإن مِن الصَّديق عَليك ضِغْنًا بَدَا لِي؛ إِنَّنـــي رَجُـــل بَصِـــير
بِأَدواء الرّجـــال إِذَا التَقَيْنـــا وَمَا تُخفِي مِن الحَسَكِ الصُّـــدُور
فإن رَفَعُوا الأعِنَّة فارفَعَنْهـــا إلى العُلْيَا، وأنـــت بِهـــا جَـــدير
وإن جَهدوا عَليك فَلا تَهَبهُم وجَاهِـــدهُم إذا حَمِـــي القَـــتِيرُ
فإن قَصَدُوا لِمُرّ الحَقّ فاقْصِد وَإن جَارُوا فَجُرْ حَتى يَصِـــيرُوا[1]

هذه الوصية بينت أهم مقومات الشخصية العربية من المنظور الجاهلي: طلب المجد، وحسن الجوار، وإكرام الضيف، وصيانة الكرامة والحفاظ عليهـــا، والتحلي بالشجاعة...

ومن الوصايا النثرية؛ وصية أكثم بن صيفي[2] لقومه وهي مرتبطة بالحرب، ووصية أمامة بنت الحارث[3] وهي من أم لابنتها المقبلة على الزواج،

1)- المفضليات، المفضل الضبي: 231-232.

2)- جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاخرة: أحمد صفوت زكي، دار الحداثة للطباعة والنشـــر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 1985م، 1: 135.

3)- المصدر نفسه، 1: 145.

ووصية قيس بن عاصم المنقري لبنيه لما حضرته الوفاة بألا يجعلوا الصغار أسيادا في القوم، وأن يحفظوا المال، ويترهوا النفس عن الوقوع في الشهوات؛ إذ يقول: "يا بني احفظوا عني، فلا أحد أنصح لكم مني، إذا متّ فسوّدوا كباركم ولا تُسوّدوا صغاركم فيسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم وإياكم ومسألة النفس، فإنها شر كسب المرء"[1].

وقد تميز أسلوب الوصايا في هذا العصر بالجمل القصار، والعبارات السهلة، واستخدام المحسنات البديعية، كما تميزت بكثرة استعمال الأمثال والحكم[2].

وبعدما عرفت شبه الجزيرة العربية الإسلام تغيرت حياة المجتمع الجاهلي، وباعتبار الأدب أحد مظاهر الحياة الجاهلية فقد تأثر نتيجة للمبادئ والقيم التي أرساها هذا الدين[3]؛ والتي كان أساسها إخلاص العبادة لله تعالى، وتزكية النفس وتهذيب السلوك، كما عرف هذا الأدب ألفاظا ومعاني جديدة قد تضمنها القرآن الكريم والحديث الشريف.

---

1)- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت.255هـ)، وضع حواشيه: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، مجلد 1، ط3، 1424هـ- 2003م، 2: 51.

2)- ينظر؛ دراسات في العصر الجاهلي وصدر الإسلام: زكريا عبد الرحمن صيام، ديوان المطبوعات الجامية، الجزائر، (د.ط)، 1984: 210-213.

3)- ينظر؛ مواكب الأدب عبر العصور: عمر الدقاق، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق- سوريا، ط1، 1988م: 45.

والوصية الأدبية هي الأخرى تأثرت بهذه المؤثرات مما أدى إلى تنوعها، فقد وردت بعض الوصايا في القرآن الكريم من بينها قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1]، وقوله عز وجل أيضا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2].

ولقد ترك الرسول ε وصايا عديدة، مستقلة أو متضمنة إلا أنها كانت منارا يضيء طريق المسلم لن يضل بعده، ومنهاجا قويما يسير عليه ليسعد في الدنيا والآخرة، وهذا بفضل ما اشتملت عليه من مواعظ ونصائح ومعان مستمدة من القرآن الكريم، فكانت دعوة إلى طاعة الله وتقواه، وإعلاء كلمة الحق، وحسن المعاملة والتواضع... ومن وصاياه عليه الصلاة والسلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ε: "يا أبا هريرة أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا، واعمل بفرائض الله تكن عابدا، وارض بقسم الله تكن زاهدا"[3].

---

1)- سورة مريم، الآيات: 30-31-32.

2)- سورة الشورى، الآية: 13.

3)- محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والاختبار، ابن عربي، المجلد: 2: 148.

كما اشتملت خطبة حجة الوداع[1]، على مجموعة من الوصايا كانت دستورا للمسلمين بعد وفاة المصطفى ε، واتسمت هذه الوصايا بأسلوب خاص تميز به الرسول ε؛ فكان هذا الأسلوب "بيانا نبويا، من خصائصه:الجودة والإبداع، وعمق المعاني ودقة الوصف والتركيب، وإحسان موسيقى الكلام وتجنب التكليف"[2].

ونتيجة لملازمة الصحابة والخلفاء الراشدين للرسول ε والاقتداء به، واحتذاء منهجه والانتهال من غزير آثاره، انعكس تأثيره في وصاياهم التي حافظت على تعاليم الدين وقيمه العالية من الامتثال لأوامر الله تعالى، والدعوة إلى الجهاد وإعلاء كلمة الحق...

ومن وصاياهم التي وجهوها إلى قادة الجيوش وهي كثيرة منها: وصية الخليفة أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد حين أرسله إلى أُبْنَى[*]، فقال: "يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر، فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا،

1)- تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (224، 310هـ)، راجعه وقدم فهارسه: نواف الجراح، دار صادر بيروت لبنان، مجلد: 2، ط2، 1426هـ- 2005م: 490.

2)- الأدب الإسلامي قضاياه المفاهمية والنقدية: عباس محجوب، حدار للكتاب العالمي، عمان- الأردن، (د.ط)، 2006م: 17.

*)- أُبنى: بالضمّ ثم السّكون، وفتح النّون والقصر بوزن حُبلى؛ موضع بالشّام من جهة البلقاء: معجم البلدان: الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر بيروت، (د.ط)، (د.ت)، 1: 79.

ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله أفناكم الله بالطعن والطاعون"[1].

وقد كشفت هذه الوصية عن رحمة الإسلام وشفقته على الشيخ الضعيف والمرأة والطفل، حتى على الحيوان والشجر، كما أبانت عن مدنيته وروحه السمحة وتركه لحرية المعتقد والدين، وتميزت هذه الوصايا بالإيجاز وهو ما عرف –بلاغيا– "بمواءمة الكلام لمقتضيات الأحوال أو اتساق المقال مع المقام"[2]، كما كانت هناك وصية أخرى من أبي بكر لخالد بن الوليد حين وجهه لقتل أهل الردة[3]، ووصية يزيد بن سفيان حين وجهه لفتح الشام[4]، كما كانت هناك وصايا أخرى كتبها الخلفاء لبعضهم كوصية أبي بكر الصديق

1)– تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك:الطبري، مجلد 2: 518.

2)– النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي دراسة تحليلية: مي يوسف خليل، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، (د.ط)، (د.ت): 8.

3)– العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث، بيروت– لبنان، (د.ط)، (د.ت)، 1: 118.

4)– المصدر نفسه، 1: 118.

إلى عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنهما، وأخرى كتبها الخلفاء لأبنائهم كوصية علي رضي الله عنه لابنه الحسن يجعله قيما على صدقته بعد وفاته[2].

أما العصر الأموي فقد حافظت الوصية فيه على ما كانت عليه في عصر الخلفاء الراشدين، من حيث مضمونها، إلا أنها عرفت وصايا أخرى، وهذا لما كانت مجالس المؤدبين والرواة والشعراء والنقاد حافلة به من مظاهر النشاط الأدبي[3].

ومن ذلك الوصايا التي كانت موجهة من الخلفاء إلى مؤدبي أولادهم؛ ومنها: وصية عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده، نصها: "ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك إصلاح نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء، وجنبهم محادثة

---

1)- المصدر نفسه ، 3: 108.

2)- نهج البلاغة الجامع لخطب وحكم أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، جمع الشريف الرضا محمد بن أبي أحمد الحسين وعز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المداني الشهير بن أبي الحديد رحمهم الله جميعا، دار الكتاب العربية، مصر– القاهرة، مجلد: 3، (د.ط)، (د.ت): 435.

3)- ينظر؛ الحياة الأدبية عصر بني أمية: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت–لبنان، ط2، 1980: 229.

النساء وتمددهم بي وأدبهم دوني، وكن لهم الطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء ولا تتكل على عذري فإني قد اتكلت على كفايتك، وزد في تأديبهم أزدك في بري إن شاء الله"[1].

ومن الوصايا في هذا العصر؛ وصية عبد الملك بن مروان لأمير سيره إلى أرض الروم[2]، ووصية معاوية لابنه زيد[3]، وقد اتسمت هي الأخرى بقوة البلاغة والبيان، والاقتباس من أساليب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مع دقة التصوير واستعمال الألفاظ القوية الموحية.

وقد واصلت الوصية حضورها وتطورها في العصر العباسي ملتزمة في أغلبها نهج الوصية السابقة نهجا ومضمونا، إلا أننا نلحظ ظهور وصايا أخرى جديدة عكست حالة التطور الحضاري والترف اللّذين كانت تعيشهما الدولة العباسية، منها الوصايا الإخوانية كرسالة "الصّداقة والصّديق" الّتي ألّفها أبو حيّان التوحيدي التي تحتوي على مجموعة من الرّسائل الإخوانية[4]، ووصايا الوزراء وقد ضمّ كتاب "أدب الوزير" للماوردي عددا منها[5].

---

1)- البيان والتبيين: الجاحظ، مجلد: 1، 1: 47.

2)- العقد الفريد:ابن عبد ربه، 1: 120.

3)- جمهرة خطب العرب: أحمد صفوت زكي، 2: 187.

4)- ينظر؛ وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنّية:روناك علي توفيق النورسي:76.

5)- ينظر؛ المرجع نفسه: 41.

كما عرفت الوصايا الفنية ازدهارا واسعا، حيث تنوعت أشكالها وتعددت مجالاتها التي كانت من بينها وصية بشر بن معتمر، التي تضمنت بعض المبادئ النقدية التي يجب على الشاعر أو الكاتب أن يلتزم بها، ومن بعض ما ورد فيها: "خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ قلبك وإجابتها إياك، فإن قليلا من تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، واسلم من فاحش الخطأ، واجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة"[1]، وكذلك وصايا البخلاء كوصية عبد الرحمن لابنه[2] لذيوع ظاهرة التفكه في هذا العصر. وتعد الوصايا الأدبية في العصر العباسي غنية بلاغيا وذلك لغلبة الصنعة، وهذا لما زخرت به من ألوان البديع، إضافة إلى الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وتضمين الشعر والأمثال والحكم[3].

وهكذا، لقد عرفت الوصيّة في الأدب العربي تطوّرا وتنوّعا، وذلك بالنّظر إلى العصر الذي عاش فيه الموصي، وطبيعة ثقافته وتكوينه. ففي ظلّ هذا القول يمكن تقسيم هذه الوصايا إلى:

---

1)- البيان والتبيين، الجاحظ: المجلد 2، 4: 45.

2)- البخلاء: الجاحظ، قدّم له وشرحه: عبّاس عبد الستير، منشورات ومكتبة دار الهلال، بيروت- لبنان، ط3، 1989: 143-144.

3)- ينظر؛ وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنّية: روناك علي توفيق النورسي: 221-222.

– وصايا عفوية فطرية؛ هي وصايا بسيطة يذهب فيها منشئ الوصيّة إلى سرد وصاياه انطلاقا من التجربة العادية التي عاشها خلال سنين حياته الطّويلة ارتجالا وسليقة، وذلك بما جادت عليه به فطرته السّليمة(1)، لا يلجأ إلى التحليل والتعليل، ومن الأمثلة على ذلك وصايا الأدب الجاهلي.

– وصايا معرفية تراكمية؛ هي وصايا زاخرة يكون صاحبها ذا تجربة واسعة وخبرة عميقة، اكتسبها عن طريق المران والمراس في جوانب الحياة المختلفة، واطّلاعه الواسع على مختلف العلوم والمعارف والفنون، كما تكون مبنية على العمق والتّحليل والإقناع المنطقي الغنيّ بالأدلّة والشّواهد المستنبطة من القرآن الكريم والحديث الشريف، بالإضافة إلى النّظرة التأمّلية الفلسفية في بسط الأفكار(2).

ويعتبر العصر العباسي من أبرز العصور التي شاعت فيه هذه النّوعية من الوصايا، وذلك لما عرفه هذا العهد من التفتّح الحضاري على الثقافات الأخرى، واحتكاك الأدب العربي بالآداب الأجنبية عن طريق الترجمة.

فإذا كانت هذه حال الوصيّة في الأدب العربي من الجاهلية إلى العصر العبّاسي، فماهي حالها في الأندلس؟

---

1)– ينظر؛ فنون النّثر الأدبي في آثار لسان الدّين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية: محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت– لبنان، ط1، 2004، 2: 68.

2)– ينظر؛ فنون النّثر الأدبي في آثار لسان الدّين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية: محمد مسعود جبران، 2: 69.



أغراض

الوصية في الأدب الأندلسي

اتصلت الوصية منذ القديم بحياة الناس، وذلك لحاجة الإنسان إليها عبر العصور لتنتظم شؤون حياته كلها، وضبط أموره حتى يستقيم سلوكه في المجتمع، ويحيا مطمئنا.

والوصية في الأندلس جاءت لتواكب ظروف حياة الفرد الأندلسي منذ وجوده بإسبانيا المسلمة في سلمه وحربه.

فكان الدين الإسلامي في طليعة الأمور التي أولاها الأندلسيون اهتماما كبيرا، ذلك أنّه ومنذ أن أشرقت شمسه على شبه الجزيرة العربية ظل منارة هادية يهدي للتي هي أحسن، ومنهاجا يقتدي به أينما حل الفاتحون وارتحلوا.

وهكذا فقد اتخذ الأندلسيون -من هذا المنطلق- الإسلام في وصاياهم غاية ومنهجا في إرساء هذا الدين الجديد وبعث مقوماته وتثبيت دعائمه، وغرسها في نفوس الأفراد الذين كانوا يعيشون في بيئة تموج بديانات أصحاب التثليث ومعتقدات أخرى.

وقد كانت هذه الوصايا دعوة للتحدي والتصدي في مواجهة كل ما عرفه الأندلسيون من صعاب ومحن، وظروف أحاطت بالدولة الأندلسية داخليا وخارجيا، كالتكيف مع تعاقب فترات الحكم المتتالية التي مرت على الأندلس من مرحلة الفتح إلى سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بها، إضافة إلى ما ميز هذه المراحل من نشوب بعض الفتن والقلاقل التي كانت من أسباب تساقط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى من جهة وتزايد أطماع الطامعين في استردادها من جهة أخرى، ولهذا اتخذ الكتاب والأدباء من الوصية وسيلة للحث على الجهاد وإعلاء كلمة الله والصمود في وجه أعداء الله والدين.

كما أن انتشار ظاهرة الزهد والتصوف في المجتمع الأندلسي، جعلت من الوصية سلاحا فعالا في ردع الفساد وإصلاح البلاد والعباد، وصيانة المجتمع من تضييع دينه وأخلاقه، وهذا نتيجة لما عرفه الأندلسيون من بعض مظاهر الانحلال الخلقي في ظل حياة الترف والبذخ التي كانوا يعيشونها.

والوصية في الأندلس كانت امتدادا لشقيقتها في المشرق نظرا لتأثّر الأدب العربي الأندلسي بنظيره المشرقي، وقد انعكس ازدهار الحضارة في الأندلس إيجابيا على تغيير معالم الوصية وتطوير آفاقها، وهذا بعدما اكتسى الأندلسيون أنوار المعارف المختلفة بانفتاحهم على الثقافات الأخرى، واهتمامهم بشتى العلوم خاصة العقلية منها، وإطلاقهم حرية الفكر والبحث، مع ميولهم إلى الإبداع والتجديد، فهكذا انتقلوا بالوصية من طور العفوية والبساطة والمحاكاة إلى طور جديد خلّدوا من خلاله وصايا زاخرة ومعرفية أودعوا فيها جل معارفهم وثقافتهم وملاحظاتهم المختلفة في الحياة، ومعظم خبراتهم وتجاربهم فيها، ساعدهم في ذلك نزعتهم الفلسفية العميقة، وحسن تفكيرهم وتدبيرهم، ونفاذ بصائرهم، وتوقّعهم الصّائب لأحوال المستقبل.

وهكذا، فقد تباينت أغراض الوصيّة في الأدب الأندلسي تبعا لمجموعة من الظّروف والأحوال التي أحاطت بحياة الأندلسيّين، فكان منها الوصايا السياسية والحربية، والتربوية، والاجتماعية.

1- الوصايا السايسية الحوربية:

إن نماء الدول وازدهارها مرتبط ارتباطا وثيقا باستقرارها السياسي وأمنها الداخلي والخارجي، وهذا يتوقف على القدرة العالية في رسم الخطط

الناجعة وإيجاد الوسائل الفعالة التي تضمن التعايش السياسي السليم بين جميع أفراد الأمة الواحدة من أعلى قمة في هرم السلطة إلى أسفلها، وذلك بخلق قوانين ونظم تساعد في تنظيم العلاقات وتحديد الحقوق والواجبات، لأن تحقيق التآلف والتوافق بين الرعية والمسؤولين مطلب أساس.

وضمانا للعيش الكريم في أرض أندلس حباها الله بنعمة الإسلام في عز وأمن، وصيانة لحقوق الرعية، وجد الأندلسيون في الوصية خير وسيلة لإرساء الأسس الصحيحة والقواعد المتينة التي تقوم عليها الدولة الإسلامية وذلك ببث العدل وإقرار مبدأ الشورى، ونبذ الاستبداد والتسلط...

وقد اقتضت الضرورة هنا توجيه وصايا من الحكام إلى أولياء عهدهم، وأخرى موجهة إلى الولاة والقضاة والرعية، وأخرى إلى قادة الجيوش...ووصايا أخرى.

أما الوصايا التي وجهها الحكام فكان منها التي صدرت عنهم مباشرة، وأما الأخرى فقد تكفل بتحبيرها كتاب أندلسيون على لسان خلفائهم وأمرائهم أو بأمر منهم، حيث تفننوا في تجويد الكتابة وصناعتها، ولهذا فقد تبوؤوا مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة لدى الحكام والأمراء حتى أضحوا من أعوان السلطان وأعمدة الدولة، وهذا لاطلاعهم الواسع بشؤون السياسة وأخبارها وخباياها.

أ-الإيلاء والاستخلاف:

هي من الفنون النثرية التقليدية، وهي نوع من العهود تتضمن آراء وحكما ونصائح يقدمها الحكام والملوك في أيامهم الأخيرة من الحكم لأبنائهم وأولياء عهدهم الذين سيخلفونهم في مناصبهم[1].

ويمكن ههنا، وقبل الخوض في الحديث عن هذه الوصايا، إدراج وصية عبد الرحمن الداخل لابنه عبد الملك المعروف بالبلنسي التي تضمنت الحديث عن اختيار من هو أجدر بإدارة شؤون المسلمين من بعده، الّذي يوفر لهم الأمن والاستقرار وهم لا يزالون في بداية وجودهم هناك، ذلك أنه من الأسس المهمة التي تقوم عليها الدول في بنائها هو قيادة حكيمة ورشيدة ذات كفاءة عالية تقود الأمة نحو المجد والرقي بكل أمانة وصدق، وقد ارتأى عبد الرحمن الداخل توفر بعض الشروط في من سيأتي بعده كالثبات على الدين والعفاف والتقى وحب الناس...

وكان قد عقد الخلافة لابنيه هشام وسليمان؛ إذ كانا غائبين، أحدهما بطليطلة والآخر بماردة، ولما حضرت أبوهما الوفاة، كلّف ابنه عبد الملك البلنسي مهمة تسليم الخلافة لإحد أخويه عن طريق هذه الوصية: "من سبق إليك من أخويك، فابرأ إليه بالخاتم والأمر، فإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه

---

1)- ينظر؛ النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس: مضامينه وأشكاله، علي بن محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1990، 1: 179.

واجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الناس له"[1]، فاستحقها هشام باستباقه إلى قصر الخلافة قبل أخيه.

ولقد كان الهدف من إنشاء وصايا الاستخلاف هو وضع المناهج السليمة التي يهتدي إليها ولاة العهد، وإيجاد قوانين ملزمة يعملون بمقتضاها في إدارة شؤون دولهم وممالكهم، وذلك بالعمل بالنصائح والوصايا التي تصدر عن الأمراء والحكماء الذين يعمدون إلى نقل تجربتهم السياسية وخبرتهم الطويلة في ممارسة السياسة وشؤونها، وذلك من أجل خدمة الإسلام وحماية المسلمين في بلاد الأندلس، وكذلك تجنيب المستخلفين الوقوع في الأخطاء والزلل كونهم معرّضين لذلك ولثقل تلك المسؤولية أمام الله والرعية، رغم ذلك التفويض الإلهي الذي يتمتع به الخليفة في الحكم أي أن الله خلقه واختاره ليكون ملكا بتوفيق منه، كما يقول أحد الخلفاء العباسيين: "أيها الناس إنما أنا سلطان في أرضه أسوسكم بتوفيقه ورشده"[2].

وكانت هذه الوصايا عبارة عن دساتير للحكم، تبينت قيمتها في محاولة بناء دولة إسلامية أندلسية على منهج إسلامي صحيح ذات معالم سياسية

---

1)- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، أو تاريخ إسبانيا الإسلامية: ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب السلماني، تحقيق وتعليق: إ.ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت- لبنان، ط2، آذار 1956: 11.

2)- البداية والنهاية في التاريخ: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير (ت.744هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة- مصر، (د.ط)، 1963م، 10: 122.

واضحة لأن "السياسة والدين متلازمان في الإسلام"[1] وذلك بتقوى الله وتطبيق أحكام الشريعة وفروضها المختلفة، وإقامة الحدود، وبسط العدل وإحقاق الحق وذلك من أجل حماية المستضعفين ومساعدة المحتاجين وإنصاف المظلومين وعقاب الظالمين وإصلاح المفسدين أو ردعهم، وهذا مما ورد في وصية هشام ابن عبد الرحمن الداخل لابنه وولي عهده الحكم قبيل وفاته، فيقول: "يا بني يجب أن لا تنسى أن الملك لله يعطيه من يشاء ويأخذه ممن يشاء. وقد منحنا الله السلطة ووضع في أيدينا صولجان الملك برحمته الواسعة، فعلينا أن نقدم له الحمد والشكر على نعمائه، وأن ننفذ إرادته بالمعاملة الطيبة لكل الناس، خاصة أولئك الذين يلجؤون إلينا طالبين حمايتنا. كن عادلا سويا مع الفقراء والأغنياء، ولا تترك للظلم سبيلا إلى دولتك فالظلم طريق الضياع، وكن في ذات الوقت رحيما عطوفا على من يعتمد عليك فكلهم خلق الله. أنزل العقاب بالوزراء والحكام ممن يميلون مع الهوى، ولا يعدلون في شعبك، وكن معهم حازما قويا"[2].

ويظهر أن الحكم بن هشام قد رسم طريقا صحيحة لولي عهده عبد الرحمن لكي يسلكها، وذلك بوضع السبل السليمة التي يجب اتباعها في تولية أمور المسلمين بعد أبيه وتعامله مع الناس لكي لا تنفلت منه أمور القيادة وتعم الفوضى، وذلك لخبرة الحكم السياسية وطول باعه فيها وكفاءته وحكمته، فقد دله على ضرورة الاهتمام بالرعية والأهل والعشيرة والإحسان إليهم، واستمالة

---

1)- أدب السياسة في العصر الأموي: أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر بالفحالة، ط1، (د.ت): 10.

2)- الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا (64-897هـ، 683-1492م) دراسة نصوص: محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، سوريا، ط1، 1400هـ- 1980م: 135.

قلوب المعارضين، كما يدعوه إلى تحكيم العقل في اختيار الولاة ممن هم جديرون باعتلاء هذا المنصب، فيقول: "واعلم أن أولى الأمر بك، وأوجبها عليك، حفظ أهلك ثم عشيرتك، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك، فهم أنصارك وأهل دعوتك ومشاركوك في حلوك ومرّك، فبهم أنزل ثقتك، وإياهم واس من نعمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم، مستثقلين لأعبائهم، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم، واعتيام أولي الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة وإصر الرهبة"[1].

ولا يقل المنصور عن الحكم شأنا وذكاء ودهاء وفطنة سياسية، فهو الآخر لما اشتد به المرض أعطى لابنه عبد الملك بن المظفر توجيهات قيمة لكي يستدل بها بعد وفاة والده، ومن بين الأمور التي أولاها عناية كبيرة في وصيته: المال، باعتباره دعامة أساسية في قيام الدول، لأن الاستقرار السياسي للدولة وأمنها الداخلي مقرون بوجود المال وحسن تصريفه واستخدامه بطريقة معتدلة، فيقول: "والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك، فأقمه مقام الجارح من جوارحك التي لا تبدلها عند الشدة، تخاف منها على سائر جسدك، وأخوك عبد الرحمن قد صيرت له في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي، وأخرجته عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساغا بينكما في خلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقض أمري، ويجلب الفاقرة

1)- المقتبس: ابن حيان القرطبي، حققه وقدم له وعلق عليه، محمود علي مكي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (د.ط)، 2001، 2: 229.

إلى دولتي. وفد كفيتك الحيرة فيه، فاكفني الحيف منك عليه، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم بحسب ما قررت به خلاصي من مال الله الذي بيدك"[1].

ب- الوصايا التنظيمية:

إن إدارة شؤون الدول والممالك وتصريف شؤونها وتسيير دواليب الحكم فيها مسؤولية ثقيلة، والاهتمام بقضايا الرعية شأن عظيم، فلهذا انقسمت المهام بين الحاكم وأعوانه لمساعدته من وزراء وعمال... ووجد الولاة ليكونوا خير واسطة بين الرعية الحاكم، وكان القضاة موجودين لتنفيذ الحدود والبحث في القضايا والأحكام.

وههنا كانت الوصايا حلقة وصل بين الحاكم ومختلف أعوانه وولاته وقضاته لضمان التكافل الجيد بالرعية، وذلك باستناده إلى آليات وضوابط تضمن له السير على الطريق الصحيح والمنهج السليم في إصداره مختلف الأحكام والأوامر والقرارات.

وكانت غاية هذه الوصايا خدمة الدولة والمجتمع وصيانة حقوق الرعية وبسط العدل ونشر الأمن وتثبيته، وذلك بالدعوة إلى الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية والتقيد بأوامر الدين ونواهيه عملا بما جاء في كتاب الله العزيز الحكيم وسيرا على هدي السيرة النبوية الشريفة.

وإقرارا للعدل بين الرعية، وتحديدا لاختصاص السلطة القضائية وتبيان العلاقة بينها وبين سائر السلطات[1] أصدر علي بن يوسف مجموعة من الوصايا

1)- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام:لسان الدين بن الخطيب: 82.

أتت في شكل رسالة تكفل بتحبيرها أبو عبد الله بن أبي الخصال إلى القاضي أبي محمد عبد الله أحمد بن عمر بن القيسي المالقي أو الوحيدي والتي تضمنت كذلك ضرورة تطبيق الأحكام وتنفيذها بالرجوع إلى الكتاب والسنة، إضافة إلى الحديث عن اختصاصات القضاة وواجباتهم وأعمالهم... ومما جرى الحديث عنه في هذه الوصية دور القاضي في الاهتمام بأمور الرعية واختياره الولاة والعمال، فيقول: "...فاستكشف -وفقك الله- الأحوال وتصورها، واستعلم مع الرعية شأن الرعية وخبرها، فكل ما رفعت إليك من أحوالها، وتظلمت فيه من عمالها، أجريته مع الحق كيف جرى، وعممت بالنظر و لم تخص قضية دون أخرى، فكل بك معصوب وأنت عنهم محاسب وبه مطلوب، ومدار هذا الأمر اختيار الحكام الذين استنبتهم في أقطارك القاسية ونصبتهم في الجهات النائية، فشرطهم الثقة والديانة، والصون والأمانة، فإنهم إذا كانوا بهذه الصفة جرت أمورهم على سبيلها القاصد، وسيرها الراشد، وأمنت في جهات الرعاية والأحكام، وأمنا بك فيها من اللبس والمداخلة مع الأيام"[2].

وقد وجه علي بن يوسف وصية أخرى على شكل رسالة من إنشاء أبي القاسم بن الجد إلى أحد عماله، بعدما كان معتادا على إرسال هذه الوصايا إلى عماله وولاته، وضع له فيها خطة يلتزم بها في معالجة شؤون الرعية وإصلاح أمورها والرفق في معاملتها؛ إذ يقول: "وأنت -أعزك الله- ممن يستغني بإشارة

---

1)- ينظر؛ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين: محمد علي مكي، مكتبة الثقافة الدينية، القـــاهرة- مصر، ط1، 1424هـــ- 2004م: 35.

2)- المرجع نفسه: 64-65.

التذكرة ويكتفي بلمحة التبصرة، بما تأوي إليه من السياسة والتجربة، فاتخذ الحق إمامك، وأجر عليه في القوي والضعيف أحكامك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه المضطهد المهضوم بابك، ووطئ للرعية -حاطها الله- أكنافك، وابذل لها إنصافك، واستعمل عليها من يرفق بها، ويعدل فيها، واطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها"[1].

ج- صاويا موجةه إلى الرعية:

تمثل الرعية دعامة أساسية في استمرار الدول والممالك واستقرارها والمحافظة على مصالحها، لهذا وجب رعايتها وصيانتها وضمان حقوقها وكفالتها، فقد كتب الأديب السياسي المحنك أبو عبد الله محمد بن أبي حاتم العاملي المالقي من سجنه قصيدة إلى السلطان[2] ضمنها وصايا سياسية حثه فيها على ضرورة الاهتمام بأمور الرعية، وتدبير شؤونهم والنظر في أحوالهم وحفظ حقوقهم، ومما تطرق إليه دعوة السلطان إلى ضرورة رعاية رعيته في وقت الضيق والشدة، وإرجاعها إلى الطريق المستقيم، وتكليفها بالمسؤوليات والواجبات حسب طاقات وقدرات كل واحد منها، فيقول:

---

1)- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين:محمد علي مكي: 74—75.

2)- ينظر؛ مقامة حضرة الارتياح، ط. تونس: 21. عن: شعر السجن في الأندلس موضوعاته وظواهره الفنية: إعداد الطالب: مصطفى الغديري، إشراف الأستاذ: عبد السلام الهراس، جامعة سيدي محمد بـــن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس— المغرب، 1408— 1409هـــ/ 1987— 1988م: 302.

وارْعَ الرعية فِي ضِيق وفِي سَعة ورُدّهم لِطريق الرُّشد إن تَاهُو
ولا تُحمّلهم إصرًا ولا رهقًا فَإنهم في اضْطِرَابِ الحَالِ أَشبَاهُ[1]

كما يذكّر المالقي السلطان بأن يكون بارا ومحسنا ورحيما مع رعيتـــه، فيوصيه خاصة بمد يد العون إلى المساكين وتفقد حال اليتامى والأرامل، فيقول:

واذْكر يتيمًا ومسكينًا وأرملـــةً فَمن تَذكرتـــه فالضـــرُّ ينسَـــاه
وامددْ يَدَ البِرّ والرَّحْمَة لذِي كبرٍ دنت خُطَاه لدهْر قَد تَخطَّـــاه[2]

وهكذا، فتحقيق التفاهم بين الحاكم والرعية منوط بالاهتمام بشـــؤونها وبمراعاة نشر العدل والإحسان في أوساطها، وضرورة تحقيق العيش الكريم لها، مع وجوب توعيتها بمعرفتها لحقوقها وواجباتها، وذلك بترغيبها حينا وترهيبـــها حينا آخر، ومعاقبتها عند مخالفتها للضوابط والقوانين الملزمة بها حتى يســـتتب الأمن ويتم القضاء على الفتن والفوضى، فكانت الوصيّة من الوسائل المعتمدة في تحقيق ذلك.

وقد كتب أبو بكر بن القصيرة مجموعة من الرسائل تضمنت وصايا من السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلسيين يدعوهم فيها إلى الطاعة والانقياد والامتثال للأوامر، وذلك إثر الاضطرابات التي عرفها الحكم المرابطي في السنوات الأولى من حكمه[3]، فمما دعاهم إليه التآزر والاتحاد

1)- القصيدة موجودة في مقامة حضرة الارتياح: 20-24. عن: شعر السجن في الأندلس موضـــوعاته وظواهره الفنّية: مصطفى الغديري: 301.

2)- المصدر نفسه: 20-24. عن المرجع نفسه: 302.

3)- ينظر؛ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، محمد علي مكي: 38.

والتعاون، والابتعاد عن الأحقاد... فيقول: "ومما نوصيكم به ونحثكم عليه -وهو- ولا توفيق إلا بالله -مجمع صلاح دينكم ودنياكم، وداعية انتظام أموركم في أسلاك مناكم-... الائتلاف على الرضا والكون في ذات الحق إخوان وداد، لا ينطوي بعضكم لبعض على حزازات ولا حرارات أحقاد"(1).

ومما أوصاهم به، فيما يخص وجوب الطاعة لولاة السلطان والانقياد لأوامرهم، وذلك لدورهم وقيمتهم الجليلة في خدمة الرعية قوله: "فاسمعوا منه في ذات الله، ولا تخالفوه فيما يراه في مصالحنا ومصالحكم ولا تعصوه، وما دعاكم إليه فابتدروه، وما حد لكم اجتنابه فاجتنبوه وإياكم وما يسخطه من التشغيب عليه فيما ينتجه"(2).

كما يدعوهم إلى احترام الولاة وتقديرهم والابتعاد عن التدخل في شؤون إدارتهم للحكم، وهذا بعدما وجه إليهم إنذارا شديدا يتوعد فيه بمعاقبة من يخرجون عن طاعة الولاة ويعمدون إلى إقامة الفتن، فيقول: "... ويتأدى إليكم من قبل واليكم وخليفتنا فيكم أبي فلان أبقاه الله، وأعزه بتقواه وهو النائب عنا في تدبيركم وإقامة أموركم وسياسة صغيركم وكبيركم، ليس لأحد معه في ذلك يد، ولا مصدر ولا مورد، ولا مقام ولا مقعد، قد فوضنا إليه في ذلك كله، وأفرضناه النظر في دقه وجله، وكثره وقله، وحكمناه في جميعكم: يثيب من استحق الثواب، ويعاقب من استحق العقاب، ويهين من أساء أشد

1)- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين:محمد علي مكي: 66- 67.

2)- المرجع نفسه: 67- 68.

الهوان، ويمتسك منكم بمن أراد، ويسرح من رأى تسريحه، ويبعد من كان سبيله الإبعاد"(1).

وقد أنشأ أبو عبد الله بن عياش وصية على شكل رسالة إلى أهل إشبيلية على لسان الخليفة المستنصر بعد تعيين خلف جديد للوالي المتوفى السيد أبي إسحاق ابن الخليفة يوسف وهو أبو إسحاق المنصور يدعوهم فيها إلى استقباله بحفاوة، كما يذكرهم بضرورة التعاون والتشاور فيما بينهم، والقيام بأعمال البر...، فيقول: "وقد عين لكم من تعرفون إيالته الحميدة وطريقته المرضية السديدة، الشيخ الأجل الأعز الأثنى الأثير الأفضل أبا إسحاق بن سيدنا الإمام المنصور أمير المؤمنين ابن سيدنا الإمام أمير المؤمنين جعل الله مقدمه عليكم سعيدا، وعرفكم به نموا على ما عهدتم من الخير ومريدا، فارتقبوا قدومه عليكم فلن يكون بحول الله بعيدا، وفي أثناء هذا -وصل الله كرامتكم- فلتحسن آثاركم، ولتطب في المسامع أخباركم، وليتساو في العافية ليلكم ونهاركم، ولتمشوا الأمور خير تمشية، ولتوفوا أعمال البر أفضل توفية، ولتأتمروا بينكم بمعروف، ولا يستطل قوي على ضعيف، ولا شريف على مشروف، والله يوزعكم شكر نعماه، ويعينكم على عز من رحماه بمنه لا ربّ سواه"(2)، وكان الهدف من إشعار الرعية بقدوم هذا الوالي هو ضبط كيفية التعامل معه لتجنّب الفوضى والانقلاب عليه.

---

1)- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين:محمد علي مكي: 68.

2)- رسائل موحدية مجموعة جديدة: تحقيق ودراسة: أحمد عزاوي، منشورات كليـــة الآداب والعلـــوم الإنسانية القنيطرة، المغرب، ط1، 1416هـــ- 1995م، 1: 346.

د- الوصايا الحربية والعسكرية:

عرفت الأندلس ظروفا سياسية وعسكرية رافقتها منذ وجودها حتى سقوط آخر مدينة فيها، لذا كانت الغاية من هذه الوصايا الإحاطة بهذه الظروف و التعايش معها؛ كمحاولة القضاء على الفتن والصراعات الدينية، وبعضها الآخر كان دعوة واستصراخا للجهاد ضد النصارى، وذلك بتوحيد الأمة واستنهاض الهمة، ورص الصف وتوحيد الكلمة من أجل التغلب على أعداء الله وإلحاق الهزيمة بهم، وصيانة الإسلام والمسلمين وحماية مقدساتهم بكل عزم وثبات وصبر.

وقد كان من بين الصراعات التي عرفتها الأندلس ذلك الصراع المذهبي بين الشيعة الفاطميين والسنة الأمويين(*)، وتبعا لهذه الظروف أرسل الحكم المستنصر بالله الوزير محمد بن قاسم بن طلمس إلى المغرب الأقصى بجيش لمحاربة خطر حسن بن قنون الحسين، ومما أوصاه به التحلي بتقوى الله، وبذل كل الجهد والاجتهاد في القضاء على هذا المذهب الشيعي حتى يبتعد عنه أنصاره وأتباعه، وكذلك بأن يدعو الوزير الحسن بن قنون إلى اتباع جادة الطّريق، وذلك بالالتزام بكتاب الله وسنّة نبيّه محمّد ع، واقتفاء منهج الخلفاء الراشدين، فيقول: "بتقوى الله ربه، وإيقاظ رأيه وعزمه، استعمال جهده وجده في مغاورة الفاسق وإخماد ناره، وأمره أن متى أظهره الله تعالى على طائفة من أنصاره أو

---

*)- وقد نشأ هذا الصراع بعد تأسيس الدولة الفاطمية بالمغرب التي ظهرت سنة 305هـ بعد قضائها على الدويلات في النصف الثاني من القرن 2 هـ، وقد عمل أهلها على نشر المذهب الشيعي في أوساط الأندلسيين، ولما ازداد خطرهم وحدتهم استوجبت الضرورة القضاء عليهم: محاضرات الدّروس النظرية: خالد بلعربي: مقياس التفاعل الحضاري بين دول المغرب والأندلس، جامعة تلمسان، 2007م.

المقترنين به أو غلب على أهل أرض ممن في طاعته، أن يأخذ بالعفو ويؤثر الصفح، ويقبل واضح العذر ويحسن التجاوز مدكّرا حمد الله تعالى وشكره... وأمره بإقامة كتاب الله وسنة نبيه محمد ε في أرض يغلب عليها بمشيئة الله تعالى، ويظفر بأهلها ويمحو منها آثار الشيعة المارقة، ويعلي سنة الأئمة الراشدين، حتى ينالهم من بركة ذلك وحلاوته وفضله و منته ما نال الجماعة من رعية أمير المؤمنين بحول الله وقوته"[(1)].

وقد بعث الحكم المستنصر بالله كذلك، رسالة إلى قائد جيشه عبد الرحمن بن يوسف يوصيه فيها باستشعار الحزم والحذر، وينبهه على ضرورة الحيطة والتحفظ، فيقول: "إن أفضل ما احتمل عليه وعمل به استشعار الحزم وادّراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون وبث الجواسيس، ومن حملة الأخبار، حتى لا يخفى لحسن –أهلكه الله– حركة، ولا يتوارى له مذهب"[(2)].

وهذا الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور يوصي بنيه وأهل دولته في العدوة بالدفاع عن الأندلس وأهلها، فيقول: "ولو مد الله لنا في الحياة لم نتوان في جهاد كفارها"[(3)].

وقد نظم أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة والأندلس أبياتا قدمها ليوسف ابن علي بن تاشفين، تضمنت توجيهات تخص قضايا الحرب وشؤونها تعد دستورا حربيا وخطة يلتزم بها أي قائد جيش في حرب أو معركة، ومما ورد فيها

---

1)- الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقية، محمد ماهر حمادة: 186-187.

2)- المرجع نفسه: 185– 186.

3)- وصايا وتوقيعات أندلسية: من خلال مخطوط رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير لأبي القاسم محمد بن أبي العلاء بن سماك العاملي، تقديم نجاة المريني، كلية الآداب، الرباط– المغرب: 7.

الحث على ضرورة الإعداد للحرب بالعـــدة والعـــدد، والتحلـــي بالشـــجاعة والاستبسال في وجه العدو، فيقول:

أُهديك من أَدب السياسةِ ما بـــهِ كَانت مُلوك الفُرس قَبلك تُولعُ
لأنَّنـــــي أَدرى بِهــــا لَكنَّهـــــا ذِكرى تحض المـــؤمِنين وَتَنفَـــع
والْبَس من الحِلَقِ المُضاعفة الَّـــتي وصَّى بِها صُنع الصـــنائِع تُبّـــع
والهِنْــــــدوانيّ الرّقيـــــق فإنـــــه أمْضى على حدِّ الدَّلاصِ وَأَقطَع
واركَب من الخَيل السَوابِق عُـــدَّة حِصْنًا حَصِينا لَيس فيه مَـــدفع
خَندِقْ عَلَيكَ إذَا ضَربتَ مَحَلَّـــة صِيَانة تَتبـــع ظـــافرا أو تُتبـــع
والوادِ لا تَعبره وانْـــزل عِنـــده بين العدوّ وبين جَيشِك يَقطـــع
واجْعل منَاجزة الجيُوش عَشـــيَّةً وورَاءك الصِّدقُ الذي هو أمنع
وإذا تضايقتِ الجيُوشُ بِمعـــركٍ ضَنْكٍ فَأطرَاف الرمَاح تُوَسَـــعُ
واصْدمه أَوّل وَهلة لا تَكتَـــرت شَيْئا فَإظهَار النُّكول يُضَعْضَـــعْ
واجعل مِن الطُّلاّع أهل شَـــهَامةٍ للصِّدق فِيهم شِيمة لا تُخـــدَع
لا تسْمع الكذَّاب جَاءك مُرجفًا لا رأي للكذَّاب فيمَا يصـــنَع[1]

ولعل الدّعوة إلى الالتزام بهذه القواعد الصحيحة في الحرب ناتج عـــن ضرورة الإصرار على تحقيق النصر، والصمود في وجه العدو، والباعث في ذلك

1)- مقدمة ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصـــرهم مـــن ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، تحقيق: محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، ط1، 1426هـــــ- 2005م: 220.

الروح الإسلامية القوية التي كان يتمتع بها الأندلسيون من أجل حماية وطنـــهم ورعيتهم.

2- الوصايا التربوية:

تحظى التربية باهتمام كبير من قبل الدّول، فهي تعتبر حجر الزاوية في بنائها، وقيام المجتمعات من الناحية الثقافية، وتطوّر الأمم ورقيّها حضاريا، من حيث إنّها توجّه سلوك الإنسان وتسهم في تكوين شخصيته تكوينا متكاملا، فهي ترشده إلى الصّلاح، وتنظم علاقاته المختلفة التي تربطه مع خالقه وأهله وخلاّنه وباقي أفراد المجتمع ليحسن التعامل معهم(1).

وهكذا ركزت الوصية الأندلسية على هذا الجانـــب المهـــم في الحيـــاة فعملت على تقويم الأخلاق وتهذيب السلوك، من خلال غرس مجموعة من القيم النبيلة، وبث الفضائل المثلى والشيم الرفيعة في المجتمع ونبـــذ الرذيلـــة ومحاربـــة المفاسد والمنكرات مستندة في ذلك على ما حملته رســـالة الإســـلام ومصـــادر تشريعها، ذلك أن العقيدة الإسلامية ارتكزت في دعوتها كثيرا على تقويم سلوك الإنسان وتنسكه بالأخلاق الرفيعة، عكس المعتقدات الأخـــرى الـــتي تســـاير شهوات الإنسان وغرائزه المختلفة.

1)- أصول التربية الإسلامية: سميرة باجابر، http//alemam.alsajad.com.

ولقد اقترنت الوصية بالتربية ذلك باعتبار أن أدب الوصايا بـــاب مـــن أبوابه، وفن من ضرورياته، لهذا عالجت موضوع التربية من جوانبها الدينية منها، والخلقية والتعليمية:

أ- من الناحية الدينية:

كانت التربية في الإسلام من الأدوات المثلى التي استخدمها الرسول ε في نشر هذا الدين في الحياة في جميع ميادينها، وتلقين تعاليمه وترسيخ جل مبادئه وقواعده الأساسية، باعتبار أنّ الرّسول ε كان أوّل من أرسل إلى البشرية جمعاء ليعلّمها الكتاب والحكمة من أجل تطهير النّفوس وتزكيتها[1]؛ إذ يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وقد وجد الأندلسيون في التربية الدينية طريقة منهجية في تنشئة الفـــرد الأندلسي تنشئة دينية قويمة، وإعداد شخصيته إعدادا روحيـــا وفـــق المنـــهج الإسلامي الصحيح، وذلك من أجل تحقيق تواصل حقيقي بينه وبين خالقه حتى يخلص العبادة له ويقر بوحدانيته.

ولهذا فقد حفلت مصادر الأدب الأندلسي بعدد من الوصايا وكـــذلك القصائد والمقطوعات الشعرية التي عنيت بالوعظ الديني والإرشـــاد الروحـــي، الذي أراد من خلالها الكتاب والأدباء والوعاظ والفقهاء والشعراء تمتين العلاقة

---

1)- التّربية في عصر ما قبل الإسلام وبعده: عبّاس محجوب، مكتبة الدكتور خليل الحذري uqu.edu.sa.

2)- سورة الجمعة، الآية: 2.

بين العبد وربه من جهة، كما حاولوا رصد الداء الناتج عن تصدع وانشقاق الوحدة الأندلسية، وتشخيص الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ضياع الكيان الأندلسي، وذلك من أجل البحث عن الدواء والذي لعله كان في التقرب من الله وطاعته وعمل الصالحات.

وهكذا فقد، حثت هذه الوصايا على تقوى الله والالتزام بالقيام بالواجبات الدينية والزهد في الدنيا، والتحلي بقوة الإيمان، وذلك بالتوكل على الله ، والاستعانة به والصبر على مصائب الدهر...

تقوى الله والتمسّك بدينه: أوصى الأندلسيون بضرورة تقوى الله والتقرب إليه والتمسك بدين الله واتباع الطريق القويم، ومما أتى من الوصايا في هذا الصدد: قول أبي عبد الله الراعي شمس الدين بن إسماعيل الأندلسي الغرناطي الذي يدعو إلى تقوى الله، والاقتداء بمنهج الخلفاء الراشدين، فيقول:

عليكَ بتقوى الله ما شِئْتَ واتَّبِعْ ... أَئِمَّةَ دِينِ الحَقِّ تُهْدَ وتَسْعَدُ

فَمَالِكُهُمْ وَالشَافِعِيُّ وَأَحْمَدٌ ... ونُعْمَانُهُمْ كلٌّ إلى الخيرِ يُرْشِدُ

فَتَابِع لِمَن أحْبَبْتَ مِنْهُمْ ولاَ تَمِلْ ... لِذِي الجهْلِ وَالتَّعَصُّبِ إن شِئْتَ تُحْمَدُ

فكُلٌّ سَواءٌ فِي وَجبة الاقتدا ... مُتَابِعُهُمْ جَنات عَدْنٍ يُخَلَّدُ

وحُبُّهُمْ دِينٌ يَزِينُ وبُغْضُهُم ... خُرُوجٌ عن الإسْلاَمِ والحَقِّ يُبْعِدُ[1]

1)– نفح الطيب: من غصن الأندلس الرطيب: أحمد محمد المقري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان، (د–ط)، 1408هـ– 1988م، 2: 695.

وهذا الحافظ أبوعامر بن عبد البر يوصي ابنه، ومما وصاه به تقوى الله، فيقول:

وسَارِعْ بتقوى الله سرًّا وجَهْرَةً فلا ذِمَّةٌ أقْوَى هُدِيتَ من التَّقْوَى[1]

كما أوصى أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي ابنه، فقال:

إذا عَقَلْــــتَ فَقُــــلْ قَــــدْ رَضِــــيتُ بــــالله رَبَّــــا

ودِيــــنَ الإســــلاَمِ دِينــــاً وبِــــالنَبِيّ المُنَبَّــــا

مُحَمّــــدٌ، قُــــلْ: رَسُــــولاً وَقُــــلْ نَبِيَّــــا مُحِبَّــــا

ثُــــمَّ اسْــــتَقِمْ وَاتَّبِعْــــهُ تَــــزْدَدْ مِــــنَ اللهِ قُرْبَــــا[2]

ومن الوصايا التي وردت في المنامات، ما ذكره الغرناطي في جنة الرضا أنه رأى الشيخ أبا إسحاق الشاطبي في المنام، وسأله أن يوصيه، فأوصاه بتقوى الله وخشيته: " لقد رأيت في عالم النوم الشيخ أبا إسحاق الشاطبي رحمه الله ولم أدركه بسني لكني علمت في النوم أنه هو، وأخبرته في ذلك وهو رجل أميل اللون للصفرة، خفيف العارضين، عليه جبة مختصرة، وقبلا ومثلها عري حولي اللون كأنه ملفّ بلدي الصنع صبغ تلك الصبغة فكنت أسأله أن يوصيني فقال

---

1)- نفح الطيب: المقري، 4: 29.

2)- في الأدب الأندلسي: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق- سوريا، ط1، 2000م: 109.

لي: (اتق الله واخشه) فأخبرت بصفته وملبسه وما صدر لي منه من الوصاة الشيخ الأستاذ أبا عبد الله المجاري -حفظه الله-(*)"[1].

وبعث الخليفة المستنصر بعد هزيمة العقاب، رسالة إلى مسلمي العدوتين يحثهم فيها على التمسك بالدين الأغر الذي هو طريق الخير والسلامة والنجاة، كما يوصيهم بدعوة الناس إلى ضرورة القيام بصالح الأعمال، فيقول: "...وإلى هذا -وصل الله توفيقكم- فقد علمتم أن الدين هو المساس الوثيق، والبناء العتيق، والفسطاط المضروب، والعلم المنصوب، والتَّجْر الذي لا يبور، والطريق الذي لا يجور؛ ومن تحصن به فقد تحصن بالمعقل الأحصن الأرقى، فإذا وقفتم على كتابنا هذا، فجددوا للناس به الذكرى، وعرفوهم أن الدنيا مطية إلى الدار الآخرة، وحُضّوهم على العمل الصالح، والتَّجْر الرابح، عسى أن يجعلهم الله

*)- يذكر الغرناطي: "والأستاذ عبد الله المجاري —حفظه الله- لكونه ممن لقيه (الشّاطبي) وأحبرني بأنّه صفته، وأنّ اللّباس لباسه، وعجب من ذلك لكونه قصده فيما أعلمني به إلى داره أيّام حياته طالبا منه الوصاة فقال له: (لقد وصّاك الله تعالى قبلي) ثمّ تلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ سورة النّساء، الآية: 131، ورجح لي بذلك أنّ الرّؤيا صحيحة، والله وليّ العفو والمغفرة". عن: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى: أبو يحيى بن عاصم الغرناطي (ت.857هــ)، تحقيق: صالح جرار، دار البشير، عمان— الأردن، (د.ط)، 1410هــ/1989م ، 1: 142.

1)- المصدر نفسه، 1: 141— 142.

تعالى في الدارين من الذين لهم البشرى..."[1]، ولعل الخليفة المستنصر قد وجد تراخي الأندلسيين عن دينهم من الأسباب المباشرة التي أدت إلى هزيمتهم في هذه المعركة.

الالتزام بالواجبات الدينية: إن الحرص على القيام بالواجبات الدينية من أهم الأمور التي ينبغي على الفرد أن يقوم بها، وأول هذه الالتزامات الدينية أداء الصلاة في أوقاتها عملا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾[2].

وقد حرص الأندلسيون على الحث على إقامة الصلاة في وقتها، فالشاعر عبد الكريم القيسي يدعو إلى ذلك، كما يدعو إلى تأديتها بكل إيمان وخشوع، فيقول:

وَأَفِقْ وقُمْ لصَـــلاَتِه في وقْتِهـــا ... إن الصَّلاَةَ وسيلَة هِـــيَ مَـــا هِـــي
وثَوابُها لِمُقِيمهَـــا في وقْتِهـــا ... لا مُـــــنْقَصٌ أبَـــــدا ولا مُتَنَـــــاهِ
وأدِمْ حُضور القلْبِ عند أدائِها ... واخْشَع خُشُوعَ القَلْبِ القَانتِ الأَوَّاهِ
واحْذَرْ إذا أدَّيْتَهَـــا بِجَمَاعَـــةٍ ... مَن أن تُرَائـــي بـــالأَدَا وتُبَـــاهِي[3]

---

1)- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين: ابن عذاري المراكشي، تحقيـــق: محمـــد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنبيب، عبد القادر رزمامة، دار الغرب الإسلامي، بـــيروت- لبنان، ط1، 1406هـــ- 1985م: 348.

2)- سورة النساء، الآية: 103.

3)- الديوان: عبد الكريم القيسي، تحقيق: جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، (د.ط)، 1988: 287.

كما يوصون بتأديتها في المساجد، هذا ما ورد في وصيّة ابن الجيان المرسي على لسان ابن هود إلى أخيه، فيقول: "وخذوا بعِمَارَةِ مساجد الله التي هي بيوتُ الأتقياء، ومحلّ مناجاة ذي العظمة والكبرياء، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]"[2].

وهذا الإمام الحافظ أبو بكر بن عطية يدعو إلى صوم شهر رمضان وجعله شهر اجتهاد وطاعة لا شهر فكاهة ولهو، فيقول:

لا تجعلَنْ رمَضَانَ شهْرَ فُكَاهَةٍ تُلْهِيكَ فيه مِنَ القَبِيحِ فُنُونُهُ
واعلَمْ بأنَّكَ لن تَنَالَ قَبُولَهُ حتى تكونَ تَصُومُه وَتصُونُهُ[3]

أما أبو الوليد الباجي فيركز في وصيته التي كتبها لولديه على الالتزام بالواجبات الدينية وبخاصة الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام، فيقول: "وإقام الصلاة فإنها عمود الدين، وعماد الشريعة، وآكد فروض الملة في مراعاة طهارتها، ومراقبة أوقاتها، وإتمام قراءتها، وإكمال ركوعها وسجودها،... ثم أداء زكاة المال، لا تؤخر عن وقتها، ولا يبخل بكثيرها، ولا يغفل عن يسيرها،... ثم صيام رمضان فإنه عبادة السر وطاعة الرب... ثم الحج إلى بيت الله من استطاع إليه سبيلا فهو فرض واجب..."[4].

1)- سورة التوبة، الآية: 18.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 413.

3)- المصدر نفسه، 2: 525.

4)- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد: مقدمة لوصية أبي الوليد الباجي لولديه، جودة عبد الرحمان هلال، مدريد، إسبانيا، العدد 3، المجلد 1، 1374هـ-1985م: 33.

الزهد في الدنيا: تحدث الموصون كثيرا في وصاياهم عن ضرورة الزهد في الدنيا والابتعاد عن زخرفها ومفاتنها الخادعة، ومما ورد من الوصايا في هذا الباب: دعوة أبي الأصبغ عبد العزيز بن علي المعروف بابن الطحال الإشبيلي، إلى ترك الدنيا لعشاقها وأصحابها لأنها مدعاة لهلاك المرء، فيقول:

دَع الدُّنيا لعاشِقِهَا سيصْبِحُ مِنْ رَشَائِقِهَا
وعادِ النَّفْسِ مُصْطَبِرًا ونَكِّبْ عَن خَلائِقِها
هلاكُ المرءِ أن يُضْحِي مُجِدًّا في عَلاَئِقِهَا
وذُو التَّقْوَى يُدَلِّلُها فيسْلَمُ مِنْ بَوَائِقِهَا[1]

وأوصى ابن عبد البر باجتناب الدنيا، فقال:

تجافَ عن الدنيا وهوِّنْ لقدْرِها ووَفِّ سبيل الدُّنيَا بالعُرْوة الوُثْقَى[2]

ويذكر أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي أن سلوك طريق الزهد هو أفضل الطرق إلى الخير والنجاح في الدنيا، وذلك بالاستعانة بالله والثقة به، فيقول:

طَريقُ الزُّهدِ أفضلُ ما طريقٍ وتقْوَى اللهِ تَالِيَةُ الحُقُوقِ
فثِقْ باللهِ يَكْفِكَ، واسْتَعِنْهُ يُعِنْكَ، ودَعْ بُنَيّات الطَّرِيقِ[3]

---

1)- نفح الطيب: المقري، 2: 634.

2)- المصدر نفسه، 4: 28.

3)- المصدر نفسه، 2: 115.

وكذلك يحذر الفقيه الواعظ العالم موسى بن بهيج المغربي الأندلسي من التقصير في الواجبات الدينية وطاعة الله، والاشتغال بأمور الدنيا الفانية، فيقول:

إنَّمــــا دُنيــــاكَ ســــاعَهْ فاجْعَـــلِ السَّــاعَةَ طَاعَـــهْ

واحـــذَرِ التَّقصِـــيرَ فيهـــا واجْتَهِد، مَـا قَـدْرُ سَـاعَهْ[1]

والحديث عن الزهد في الدنيا هو حديث عن القناعة والرضا، وهو مـــا عبر عنه السميسر في أيامه الأخيرة قائلا:

دَعْ عَنْـــكَ مـــالاً وجَاهًـــا لاَ عَـــيشَ إلا الكَفَـــافُ

قُــــوتٌ حــــلاَلٌ وأمــــنٌ مــــن الــــرَّدى وعَفَـــافُ

وكــلُّ مــا هــو فضــلٌ فإنَّــــه إسْــــرَافُ[2]

التذكير باليوم الآخر: إن طاعة الله والالتزام بواجباته الدينية والزهد في الدنيا هي تعبيد للطريق إلى الجنّة، مبتغى كل عامل ومطمح كل مؤمن؛ ولكي يواظب الإنسان على أعماله الصالحة ويجتهد أكثر في إخلاص العبادة لا بد له من بعض المحفزات على ذلك؛ كالتذكير بالموت ويوم الحساب والعقاب، ومن بين الوصايا التي صدرت في هذا الصدد: وصية لعبد الملك بن إدريس الجزيري؛ ومّما تضمّنته تذكير أبنائه بالموت واليوم الآخر للعمل لأجله، فيقول:

ولكلّ حيّ مدّةٌ فإذا انقضَـــتْ بدُنُوِّ يــومِ حِمَامِــهِ لَــم يُنْظَــرِ

---

1)- نفح الطيب:المقري، 2: 221.

2)- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنـــان، ط4، 1979: 62.

فاعْمَلْ لذاكَ اليوم إنَّكَ مَيِّــتٌ قبلَ المُضِيِّ إلى المُمِيــتِ المُنْشِــرِ
ما دُمْتَ في مَهَلٍ وأعمال التُّقى لكَ بالحَيَاة مباحةٌ لَــم تُحْجَــرِ
وارْغَبْ عنِ الدُّنيَا فإنَّ وراءَهَــا يومًا ثقيلاً ذا غِفَــارٍ مُصْــغرِ[1]

ويذكر القاضي الأستاذ أبو العباس أحمد بن الغماز البلنسي نزيل إفريقيا بيوم الحساب والعقاب، كما يحذر من بغتة الموت، فيقول:

هو الموتُ فاحذَرْ أن يَجيئَكَ بَغْتَــةً وأنتَ على سُوءٍ منَ الفِعْلِ عَاكِفُ
وإيّاكَ أنْ تَمضِي من الدَّهرِ ســاعةٌ ولا لَحظَةٌ إلاّ وقلبُــك واجِــفُ
فَبادر لأعمال تســرك أن تــرى إذا طُوِيَتْ يومَ الحِساب الصَّحَائِفُ
ولا تَيْأسَنْ مِــنْ رَحْمَــةِ الله إنّــه لَربُّ العباد بالعبــاد لطــائف[2]

كما يدعو ابن عبد ربه إلى المبادرة إلى التوبة قبل أن يفاجأ العبد بالموت، فيقول:

بادِرْ إلى التّوبَةِ الخلصَاء مُجتهــدًا والموتُ وَيْحَكَ لَم يَمْدُدْ إلَيكَ يَدَا
وارْقُبْ مِن الله وَعْدًا لَيْس يَخْلفه لابدَّ لله من إنْجَازِ مَــا وَعَــدَا[3]

1)- قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري في الآداب والسنة (ت.364هـ)، تحقيق: هــلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط1، 1994: 62.

2)- نفح الطيب: المقري، 4: 322.

3)- الديوان: ابن عبد ربّه، تحقيق: محمد رضوان الدّاية، مســؤّؤة الرّســالة، بــيروت- لبنــان، ط1، 1399هـ/1979م: 50.

الصبـــر: وهـــو مفتـــاح الفـــرج؛ يقـــول الله تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1]؛ لهذا دعت الوصايا الأندلسية إلى التحلي بالصبر وقت الشـــدائد والمحن، ومنها قول ابن الجيش:

قالوا تصبَّرْ عنِ الـــدُّنيا الدَّنيَّـــةِ أو كُنُ عَبْدَهَا واصْطَبِرْ للذُّلِّ واحْتَمِـــلِ
لا بدَّ من أحد الصَّبْرينِ، قُلتُ: نعم الصَّبْرُ عَنْهَا بِعَوْنِ اللهِ أَوفَقُ لِـــي[2]

ويقول أيضا:

اطلبْ لنفسكَ فوزَها واصبِرْ لها نظَرَ الشفيقِ وخَفْ عليها واتَّـــقِ
مَنْ لَيسَ يَرحمُ نفسَه ويَصُـــدُّها عمَّا سَيُهلِكُهَا فليسَ بِمُشفِقِ[3]

طاعة الوالدين: قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَـٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلاً كَرِيمًا، وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾"[4].

إنّ طاعة الوالدين والبرّ بهما واجب، حث الدين عليه، وهاهو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري يحث أبناءه على ذلك، فيقول:

ثمّ اقْضِ حقَّ الوالدينِ وقُـــمْ بمـــا فرض الكتابُ عليكَ منه وابـــدر

1)- سورة البقرة، الآية: 153.

2)- نفح الطيب:المقري، 3: 227.

3)- المصدر نفسه، 3: 227.

4)- سورة الإسراء، الآيتان: 23- 24.

أوسِعْهُمَا بِرًّا ولاَ تَنْهَرهُما | وامْنَحهُما قولاً كَرِيمًا واشكُرِ
واخْفِضْ جَنَاحَكَ رحمةً لِكِلَيْهِمَا | تَمْهِدْ لِنفْسِك لو فعلتَ وتَذْخُرِ[1]

ب- من الناحية الخلقية:

لقد نبه الموصون على ضرورة الاتصاف بالخلق الحسن والأخذ بالمثل العليا والشيم الرفيعة، التي دعا الدين إلى التحلي بها باعتبارها جوهر الدين وركيزة أساس فيه، يقول الرسول ε: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[2]، فهي تعمل على تهذيب الطباع، وتسهم في بناء مجتمع راق متوازن يتماشى مع متطلبات الحضارة في حدود تعاليم الإسلام وأسسه المتينة، ومما خلفه الأندلسيون من وصايا في هذا المجال: وصية للشيخ أبي عثمان سعد بن ليون التجيبي يحث فيها على الأخذ بفضائل الأخلاق، فيقول:

قَاتِلْ عدُوَّك بالفضَائل إنَّها | أعدَى عَلَيْه مِن السِّهَامِ النُّفَّذِ
كسْبُ الفَضَائِل عُدَّةٌ تُعْلِيكَ في | رُتَبٍ بها سُبُلَ السَّعَادة تَحْتَذِى
فاحْرِصْ على نَيْلِ الفَضَائِل جَاهِدًا | إنَّ الفضيلةَ صَعبَةٌ في المَأْخَذِ[3]

ويقول أيضا:

1)- قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري: 58.

2)- رواه البخاري في الأدب المفرد، وكذلك في سلسلة الأحاديث الصّحيحة: الألباني، جمع وتجريد أبو عبيدة شهور بن حسن آل سعان، مكتبة المعاجم للنّشر والتوزيع، الرياض- السّعودية، (د.ط)، (د.ت): 28.

3)- نفح الطيب: المقري، 5: 585.

لا تَطلُبْ المَرْءَ بِمَا اعْتَدْتَ من أخلاقـــه و المـــرء في وهــــن
تَنْتَقِلِ الأَخْلاَقُ لاَ شَـــكَّ مَـــع تَنَقُّـــلِ الحَــالاَتِ والسِـــنِ[1]

كما يذكر بأهمية الأخلاق الحسنة وأثرها على حياة الفرد، فيقول:

مَن حَسُنتْ أخلاقُه عــاشَ في نُعْمَـــى وفي عـــزٍّ هَنِـــيٍّ وَوُدِّ
ومَنْ تَسُــؤْ للخَلْــقِ أخلاقُــه يَعِشْ حَقِيراً في هُمُومٍ وَكــدِّ[2]

ومن جملة هذه الصفات الحسنة: فعل الخيرات وهي ما يدعو ابن ليـــون التجيبي إليها قائلا:

افعل الخير ما استطعتَ تَنَلْ ما تَبْتَغِيـــهِ مـــن الثَّنَـــاءِ الجَمِيـــلِ
فاعلُ الخَيْرِ آمِنٌ ليس يَخْشَـــى صرفَ الدَّهْرِ ولا حُلُولَ جَلِيلِ[3]

كما تضمّنت وصية عبد الحق بن سبعين لتلامذته وأتباعه الحديث عن التحلي بمكارم الأخلاق؛ بالابتعاد عن الشهوات وفعل الخيرات... ،ومنها قوله: "وجاهدوا النفس في اجتناب الشهوات، وكونوا أوّابين توّابين، واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق، واعملوا على نيل الدرجات السنية، ولا تغفلوا عن الأعمال السنية، وحصلوا مخصص الأعمال الإلهية ومهملها، وذوقوا مفصل الذات الروحانية ومجملها، ولازموا المودة في الله بينكم..."[4].

---

1)- نفح الطيب:المقري ، 5: 568.

2)- المصدر نفسه ، 5: 556.

3)- المصدر نفسه، 5: 593.

4)- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخـــانجي، القاهرة– مصر، ط2، 1393هـــ– 1973م، 4: 36– 37.

ويدعو ابن ليون التجيبي إلى اجتناب الحسد، فيقول:

دَعْ الحَسُودَ تُعاتِبْهُ لظـــى حَسَـــدِه حَتَّى تَرَاهُ لَقى يَمُوتُ مِنْ كَمَدِه
مَا لْلحَسُودِ سِوَى الإِعْرَاضِ عَنْهُ وأنْ يَبْقَى إِلى كَرْبِهِ فِي يَوْمِه وَغَدِه[1]

وكذلك يدعو إلى الإحسان إلى الجار، فيقول:

للجَارِ حَـــقٌّ فاعْتَمِـــد بِـــرَّهُ واحْمِـــل أذَاه مُغْضِـــياً سَـــاتِرا
فاللهُ قَدْ وَصَّـــى بـــهِ فَـــاغْتَفِرْ زَلَلَـــهُ البَـــاطِنَ والظـــاهِرَا[2]

ويذكر عبد المالك بن إدريس الجزيري بضرورة صدق الحديث ، وحفظ الوعود والأيمان، فيقول:

واصْدُق حديثَك كلَّ من حدَّثْتَهُ واصْدَعْ بِحَقٍّ في قَضَائِك تُشْكر
واحفَلْ بوَعدِك وارْعَ كلَّ أمَانَةٍ واختَرْ لنفسِكَ خُطَّةَ الوافِي السَّرِي[3]

ج- من الناحية التعليمية:

اهتمت الوصايا الأندلسية كثيرا بالحض على طلب العلم وتلقينه، وغرس حبه في النفوس، وهذا بعدما نوه الموصون بقيمة العلم ودوره في بنـــاء الفـــرد وتنمية ملكاته حسب استعداداته الفطرية والذهنية، مبيـــنين أولويـــة العلـــوم وأحقيتها بطلبها، مذكرين بالنافع والضار منها، وهذا ما ســـينعكس إيجابـــا في النهوض بالمجتمع نحو المجد والرقي، ومما ورد من وصاياهم في هذا الشأن: دعوة

---

1)- نفح الطيب:المقري، 5: 561.

2)-المصدر نفسه، 5: 548.

3)- قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري: 60.

محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي إلى الالتزام بالجدّية في تحصيله مع ضرورة حفظه وفهمه للعمل به، فيقول:

العِلمُ في القلب ليس العلمُ في الكُتبِ فلا تكُن مُغْرماً بـــاللَّهْو وَاللَّعــــبِ
فاحفظْهُ وافهمْهُ واعْمَل كَي تَفُوز بِه فالعِلْمُ لاَ يُجتَنَى إلاَّ مَع التَّعَــــبِ[1]

وهذا أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري الأندلسي يحث ولده على طلبه، مشيدا بأهميته، فيقول:

أبا بَكْرٍ دَعَوتُـــك لـــو أَجَبْتَـــا إلى مَا فِيهِ حَظُّـــك إن عَقَلْتَـــا
إلى علْمٍ تَكُـــون بِـــه إمامـــاً مُطَاعاً إن نَهَيـــتَ وإنْ أَمرتَـــا
ويَجْلُو بِعَيْنِك مِـــن غَشَـــاهَا ويَهْدِيكَ الطَّرِيـــقُ إِذَا ضَـــلَلْتَا
وتَحَملْ مِنه فِي نـــادك تاجًـــا ويَكْسُوكَ الجَمَـــالَ إذا عَرِيتَـــا
يَنَالُكَ نَفْعُه مَـــا دُمْـــتَ حيًّـــا ويَبقَى ذِكْرُه لـــكَ إنْ ذَهَبْتَـــا
هو العَضْبُ المُهَنَّدُ ليسَ يَنْبُـــو تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِـــلَ مَـــنْ أَردْتَـــا
وكَنْزًا لاَ تَخَافُ عَلَيْـــه لِصًّـــا خَفِيف الحمْلِ يُوجَدُ حَيْث كُنْتَا
يَزِيدُ بكَثْـــرة الإنْفَـــاق مِنْـــهُ وينقُصُ إنْ بِـــه كفًّـــا شَـــدَدْتَا
فَلَو قَدْ ذُقْتَ مِن حَلْوَاهُ طَعْمـــاً لآثَـــرْتَ الـــتَّعَلُّمَ واجْتَهَـــدْتَا[2]

1)- نفح الطيب: المقري، 2: 236.

2)- ديوان أبي إسحاق الإلبيري: إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي الإلبيري، تحقيق: رضـــوان محمـــد الداية، دار قتيبة، دمشق- سوريا، ط2، 1401هـــ/1981م: 26.

ويوصي أبو طالب عبد الجبار في أرجوزته باتخاذ العلم لذاته لا للتباهي به، ووجوب استثماره في التفكر والاستدلال والاستنباط، فيقول:

أوصيكَ يَا مَنْ يطلبُ العُلُومَــا ... أن تَعْــرِفَ المَوْهُــومَ وَالمعْلُومــاَ

ولاَ تَقُــلْ بالمَيْــلِ للتَّقْلِيــدِ ... فَــذَاكَ رَأيُ الكَــوْدَنِ البَلِيــدِ

واتَّخِذْ العِلْــمَ لِــنَفْسِ العِلــمِ ... لاَ لِلمُبَاهَــــاةِ وَلاَ لِلْخَصْــــمِ

وَالعِلْمُ، إنْ أَرَدْتَ حَدَّ مَطْلَبِــهْ ... مَعْرِفَةُ الشَيْءِ عَلى مَا هُــوَ بِــهْ

والعِلْمُ عِلْمَانِ أيَا مَن يَبْحَــثُ ... عِلْمٌ قَدِيمٌ ثُــمَّ عِلْــمٌ مُحْــدَثُ

إنَّ القَديمَ عِلْــمُ رَبِّ العَــرْشِ ... باري البَرِيَّــة الشَّــدِيدِ الــبَطْشِ

ومُحْدَثٌ فَذَاكَ عِلْــمُ الخَلْــقِ ... مِنْ نَاطِقٍ وَغَيْرَ مــا ذِي نُطْــقِ

وَكُلُّ عِلْمٍ مُحْــدَثٍ عِلْمَــانِ ... عِلْــمٌ ضَــرُورِيٌّ بِــلاَ بُرْهَــانِ

كَالعِلْمِ أنَّ اثْنَيْنِ ضِعْفُ وَاحدٍ ... وأَنْ لَــيْسَ قَــائِمٌ كَقَاعِــدِ

وبَعــدَهُ فَعِلْــمُ الاسْــتِدْلاَلِ ... والمَنْطِق البَاحثُ عَــنْ أَحــوَالِ

مَا فِيه مَا يَنْظُــرُ مَــن يُفَكِّــرُ ... يُدْرِكُ هَــذَا كُــلُّ مَــنْ يَعْتَبِــرُ

وصَانِعُ العَــالِم فَــرْدٌ صَــمدُ ... والصُّنْعُ لَم يَشْــركُه فِيــه أَحَــدُ

فَصُنْعُ الاثْنَيْن اشْتِرَاكٌ مِنْهُمــا ... لاَ يَخْلُــوَان مِــنْ تَغَايُرِهِمَــا[1]

ويشير ابن الجنان المرسي في الوصية التي كتبها على لسان ابن هود لأخيه إلى قيمة تعليم كتاب الله للصغار، فيقول: "ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب

1)- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط1، 2000م، القسم الأول، 2: 699.

الله تعالى، فإن تعليمه للصغار يطفئ غضب الرب، ونعم الشفيع هو يوم القيامة"[1].

3- الوصايا الاجتماعية:

لقد عالجت الوصايا الأندلسية الشعرية والنثرية الموضوعات الاجتماعية، التي شملت الحديث عن كيفية التعامل في الحياة مع الآخرين، وطرق العيش في الحياة وتسيير شؤونها وأمورها، وذلك بالاستفادة من تجارب السابقين الذين جربوا الحياة وخبروها تحقيقا للتواصل مع الآخرين والتفاعل معهم إيجابيا.

ومن الأغراض التي طرقتها: الحث على العمل والحزم، ومعاشرة الناس والتعامل معهم بالحسنى.

أ- الحزم العزمو:

دعا الموصون إلى الحزم والعزم واجتناب الكسل، ومن الوصايا التي وردت في هذا المعنى: ما يذكره ابن ليون التجيبي، فيقول:

لا تَتْركِ الحـزمَ في كـلِّ مـا تُرِيدُ، ولا تَبْغِ مـا يَصْـعُبُ[2]

ويقول أيضا:

لا تَتْركِ الحزمَ فِي شيءٍ فإنَّ بـه تَمَامَ أَمْرِك فِي الدُّنْيا وفِي الدِّين
من ضيّع الحزْمَ تَصْحَبْه النَّدَامَةُ في أيّامِه ويـرَى ذلّ المهـاوين[3]

---

1)- نفح الطيب: المقري، 7: 413-414.

2)- المصدر نفسه، 5: 546.

3)- المصدر نفسه، 5: 550.

ويوصي عبد المالك بن مروان بن إدريس الجزيري بالحزم ،فيقول:

واشْرَح بكُلِّ مُلِمَّة صدْرا، وخُذْ بالحزْمِ في بُهْم الأُمُور وشَمِّرِ[1]

ب- معاملة الآخرين:

لقد كانت وصايا الأندلسيين دروسا قيمة يحسن العمل بها في خضم التعامل مع الآخرين في الحياة.

فهذا أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي بن سعيد يوصي ابنه ببعض السبل التي تكفل له التعامل الجيد مع الأصحاب معاملة حسنة يصحبها الحذر والاحتراس، فيقول: "يا بني وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وتغير، وقد قيل: اصحب من شئت فإنك مفارقه، فمتى فارقت أحدا فعلى حسن القول والفعل، فإنك لا تدري هل أنت راجع إليه... واحرص على ما جمع قول القائل: ثلاث تُبقي لك الود في صدر أخيك، أن تبدأه بالسلام، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب الأسماء إليه، واحذر كل ما بينه لك القائل: كل ما تغرسه تجنيه إلا ابن آدم فإنك إذا غرسته يقلعك، وقول الآخر: ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن، وقول الآخر: ابن آدم ذئب مع الضعف، أسد مع القوة، وإياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره، ويحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبته فجاوبه: إن الصحبة رق، ولا رق في يدك حتى أعرف كيف ملكتك، واستمل مِن عين مَن تعاشره، وتفقد في فلتات الألسن وصفحات

1)- قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري: 59.

الأوجه، ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك أن لا تبينه، فإن الكلام سلاح السلم، وبالأنين يعرف ألم الجرح، واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك، وآكد ما أوصيك به أن تطرح الأفكار، وتسلم للأقدار"[1].

ومما أوصى به الأستاذ أبو حيان أهله لما قدم إلى مصر؛ كيفية تعامل العاقل مع الناس وذلك بضرورة التحفظ والتحرز من الأصدقاء، فيقول: "ينبغي للعاقل أن يعامل كل أحد في الظاهر معاملة الصديق، وفي الباطن معاملة العدو في التحفظ منه والتحرز، وليكن في التحرز من صديقه أشد من التحرز من عدوه وأن يعتقد أن إحسان شخص لآخر وتودده إليه إنما هو لغرض قام له فيه يتعلق به يبعثه على ذلك لا لذات ذلك الشخص"[2].

وكذلك معاملة الناس حسب قدراتهم العقلية ومدى إدراكهم وفهمهم للأمور، مع تجنب الاستخفاف والازدراء بهم، فيقول: "وأن يعذر الناس في مباحثهم وإدراكاتهم فإن ذلك على حسب عقولهم، وأن يضبط نفسه عن المراء والاستزراء والاستخفاف بأبناء زمانه، وأن لا يبحث إلا مع من اجتمعت فيه شرائط الديانة والفهم والمزاولة لما يبحث، وأن لا يغضب على من لا يفهم مراده

1)- نفح الطيب:المقري، 2: 358-359.

2)-المصدر نفسه، 2: 565.

ومن لم يدر ما يدركه، وأن يلتمس مخرجا لمن ظاهر كلامه الفساد، وأن لا يقدم على تخطئة أحد ببادي الرأي"[1].

وهذا محمد بن عبد الله الحضرمي مولى بني أمية يوصي بمعاشرة الناس بالخير مع اجتناب الدنيء منهم، فيقول:

عاشِرِ النَّاسَ بالجَميـلِ   وسـدِّد وقـارِبْ
واحتَرِسْ مِنْ أذَى الكرامِ   وجُدْ بِالمواهِبْ
لا يسودُ الجميعَ مَنْ لَمْ   يَقُمْ بالنَّوَائِبْ
ويَحُوطُ الأذى وَيَرْعَى   ذِمَامَ الأقَارِبْ[2]

ويقول أيضا:

لا تُواصِلْ إلاَّ الشَّرِيفَ   الكَرِيمَ الْمَنَاصْبْ
مَنْ لَهُ خَيْرُ شَاهِدٍ   ولَهُ خَيْرُ غَائِبْ
واجْتَنِبْ وَصْلَ كُلِّ وَغْدٍ   دَنِيءِ المكَاسِبْ[3]

وهذا الإمام الحافظ أبو بكر بن عطية يحذر من خلفاء الزمان، وينبه على التحفظ من الإنسان، فيقول:

كُنْ بذئبٍ صَائِدٍ مُسْتَأْنِساً   وإِذَا أَبصَرْتَ إنسَاناً فَفِرّْ
إنّما الإنسانُ بَحْرٌ ما لَهُ   ساحِلٌ فاحذَرْهُ إيَّاكَ الغَرَرْ

---

1)- نفح الطيب: المقري، 2: 565-566.

2)- المصدر نفسه، 4: 118.

3)- المصدر نفسه، 4: 119.

واجعَلِ الناسَ كشَخْصٍ واحِدٍ ثم كنْ من ذلِكَ الشَّخصِ حَذِرْ[1]

ج- حفظ اللسان كتو امن السر:

وأوصى الأندلسيون بضرورة حفظ اللسان لأنه مجلبة للأذى والمهالك، فصيانة اللسان تعود بالخير على صاحبها، ومما ورد من الوصايا في ذلك: ما قاله أبو القاسم بن الأنقر السرقسطي:

احْفَظْ لِسانَك والجوارحَ كلّها فلكلِّ جَارِحَةٍ عليــكَ لِسَــانُ
واخْزِنْ لسانَك ما اســتطَعْتَ ليثٌ هصور والكلام ســيان[2]

ويحذر أبو بكر الجزار السرقسطي من زلات اللسان، فيقول:

إيَّاك من زلَلِ اللّسَــان فإنَّمــا عَقْلُ الفتى في لفظِــه الْمَسْــمُوعِ
والمرءُ يَختَبِــرُ الإنَــاء بنَقْــرِه ليرَى الصَّحِيحَ بِهِ منَ المصْدُوعِ[3]

وينبه محي الدين بن عربي إلى ضرورة حفظ السر وكتمه وعدم البوح به، فيقول:

نبِّهْ علــى السِّــرِ ولا تُفْشِــهِ فـــالْبَوْحُ بالسِّــرِّ لــه مَقْــتُ
على الذِي بِيَدَيْه فاصْــبِرْ لَــهُ واكْتُمه حتّى يصِلَ الوَقْــتُ[4]

1)- نفح الطيب: المقري، 2: 524.

2)- المصدر نفسه، 4: 114.

3)- المصدر نفسه، 3: 598.

4)-المصدر نفسه، 2: 184.

د- معاملة النساء:

يوصي الشاعر أبو عبد الله بن حداد بخيانة المرأة التي تخون عهد زوجها، فيقول:

خُنْ عَهدَها مثلَ مَا خَانتك منتصفاً   وامْنح هَوَاهَا بِنسيَانٍ وسلْوان
فالغَيُدُ كالرَّوضِ في خلقٍ وفِي خُلق   وَإن مر جَان أَتَى من بَعْده جَان[1]

ـهـ- عدم الاغتراب :

وأوصى ابن جبير بعدم الاغتراب عن الوطن، فقال:

لا تَغْترِب عنْ وَطَنٍ   واذْكُرْ تَصارِيفَ النَّوى
أمَا تَرَى الغُصْنَ إذاً   مَا فَارَقَ الأصْلَ ذَوَى[2]

و- السّفر التجواول:

والعكس من ذلك، يدعو ابن خاتمة الأنصاري إلى السّفر والتّجوال، فيقول:

سَافِر تَنَل بالأَسْفَارِ كُلّ عُلاَ   وتَشْفِ النَّفْسَ من مآرِبِهَا[3]

ويقول أيضا:

جُلْ فِي بِلاَدِ الله نَحْوَ العُلاَ   وَلَتَجْتَنِبْ أَهلاً وَأُوطانا[4]

---

1)- نفح الطيب: المقري، 3: 505.

2)- المصدر نفسه، 2: 382.

3)- الديوان: ابن خاتمة الأنصاري، تحقيق: محمد رضوان الداية، دمشق، سوريا، (د.ط)، 1972: 137.

4)- المصدر نفسه، 137.

4- وصايا أخرى:

ومن المجالات التي خاضت فيها الوصيّة في الأندلس توصية أصحاب المناصب والوظائف، خاصّة الحساسة والخطيرة منها، فمثلا عبد الكريم القيسي يوصي القاضي باتّباع ما نصّت عليه الشّريعة ونصوصها، وكذلك بالتّدقيق والبحث وإعادة النظر في إصدار الأحكام قبل فوات الأوان، فيقول:

أعدْ نظراً فيما أتيتَ به فقَدْ   بدَا هذا الفِعلُ منكَ تَهَكُّم
وبَادر زمانَ الحُكْمِ مِنْ قَبْلِ فَوْتِهِ   فما كلُّ وقتٍ أنتَ تَقْضِي وتَحْكُمُ[1]

ومما ينصح به القضاة في كيفية التّعامل مع الشّهود، فيقول:

بَذْلُ النّصِيحَة وَاجبٌ لكَ سيِّدي   فأصخ فعنك نصيحتي لم أخْزُن
إنّ العُدُولَ من الشُّهود يَسُوؤُهم   جعلُ المُبَرّزِ منه كالمخزن[2]

وأوصوا كذلك بالشّيب حتى لا ينخدع به، فتقول أمّ العلاء بنت يوسف الحجارية لرجل كانت تحبّه:

الشّيب لا يُخدَع فِيه الصّبَا   بِحِيلَةٍ فاسْمع إلى نُصحِي
فَلاَ تَكُن أجْهَل مَن في الوَرَى   يَبِيت فِي الجَهْل كَما يُضحِي[3]

وأشاروا إلى ضرورة اقتصاد المال لاستثماره عند الحاجة، فيذكر في هذا الصّدد ابن منصور أبو الحسين:

---

1)- الديوان: عبد الكريم القيسي: 215.

2)- نفح الطيب: المقري، 245.

3)- المصدر نفسه، 4: 169.

إذَا عَرَتْـــــــكَ عَيْلَـــــــةٌ يَعْجِـــزُ عنـــها مَـــا تَجِـــدْ
فلْتقتصِـــــــــدْ فَإنّـــــــــه مَـــا عـــالَ قـــطُّ مُقْتصِـــدْ[1]

كما أوصوا في الوقت نفسه باجتناب البخل والتحلّي بالكرم؛ إذ يقول أبو محمد بن صارة:

اسْعَدْ بمالِك في الحياةِ ولا تكُـــن تُبقِي عليه حِذارَ فَقْـــرٍ حَـــادِثِ
فالْبُخْلُ بـــين الحـــادثين، وإنّمـــا مالُ البخيلِ لحـــادثٍ أو وَارِثِ[2]

وأوصوا كذلك بالتّواضع وحذّروا في ذلك من التّشهير في اقتناء الملبس والثّياب، فيقول ابن جبير:

إيَّـــاكَ والشُّـــهْرَةَ في مَلْـــبَسٍ والبَسْ مِن الأَثْـــوَابِ أَسْـــمَالَهَا
تَواضُـــعُ الإنســـانِ في نفسِـــه أشرفُ للنّفْسِ وأسْـــمَى لهـــا[3]

وقد ألّف ابن حزم وصايا في باب العشق منها: وصيّته التي يوصي فيها المحبّين بتخيّر سفرائهم، فيقول: "ويجب تخيّره وارتياده واستجادته واستفراهه، فهو دليل عقل المرء، وبيده حياته وموته وستره وفضيحته بعد الله تعالى، فينبغي أن يكون الرّسول ذا هيئة، حاذقا يكتفي بالإشارة، ويقرطس عن الغائب، ويحسن من ذات نفسه، ويضع من عقله ما أعقله باعثه، ويؤدّي إلى الّذي أرسله

1)- نفح الطيب: المقري، 4: 121.

2)- المصدر نفسه، 4: 117-118.

3)- المصدر نفسه، 2: 485.

كلّ ما يشاهد على وجهه، كأنّما كان للأسرار حافظا، وللعهد وفيّا، قنوعا ناصحا"[1].

ويوصي السّميسر بالابتعاد عن الجاه والسّلطة، فيقول:

إذا شِـــئْتَ إبقَـــاءَ أَحْوالِكَـــا فَلاَ تُجَر جَاهًـــا علَـــى بَالِكَـــا
وكُـــن كـــالطّرِيقِ لِمُجْتَازِهَـــا يَمُرُّ وَأَنْـــتَ عَلَـــى حَالِكَـــا[2]

كما أوصى الأندلسيون بإكرام الضّيف، وممّا ورد من ذلك في كتاب الوصايا: "عليك بإكرام الضّيف... فإن كان الضّيف مقيما فثلاثة أيّام حقّه عليك، وما زاد فصدقة، وإن كان مجتازا فيوم وليلة جائزته"[3].

وقد حثّ ابن عربي كذلك، على ضرورة عيادة المريض لما في ذلك من الاعتبار؛ إذ يقول: "وعليك يا أخي بعيادة المرضى لما فيها من الاعتبار والذّكرى فإنّ الله خلق الإنسان من ضعف فينبّهك النّظر إليه في عيادتك على أصلك لتفتقر إلى الله بقوّة يقوّيك بها على طاعته، ولأنّ الله عند عبده إذا مرض، ألا ترى إلى المريض ما له استغاثة إلاّ بالله ولا ذكرى إلاّ لله، فلا يزال الحقّ بلسانك منطوقا به وفي قلبه التجاء إليه، فالمريض لا يزال مع الله أيّ مريض كان ولو

1)- طوق الحمامة في الألفة والألاف: ابن حزم الاندلسي، ضبط خطّه وحرّر هوامشه: طاهر مكّي، دار المعارف القاهرة، مصر، ط2، 1977م: 66.

2)- نفح الطيب: المقري، 4: 117.

3)- الوصايا لابن عربي: محي الدّين أبي عبد الله الحاتمي الطّائي الأندلسي المعروف بابن عربي (ت.638هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، (د.ط)، (د.ت): 110.

تطبّب وتناول الأسباب المعتادة لوجود الشّفاء عندها ومع ذلك فلا يغفل عن الله، وذلك لحضور الله عنده[1].

وممّا ورد عن الأندلسيين في باب التّوصية بالآخرين: رسالة وجّهها الغزالي إلى يوسف بن تاشفين يوصيه خيرا بالإمام ابن العربي وولده محمد[2]، ورسالة للطرطوشي يبدو أنّها كتبت سنة 493هـ-1099م بعد وفاة ابن العربي والد أبي بكر؛ إذ إنّها لا تتضمّن إلاّ توصية بالابن وحده، وقد وجّه كلامه إلى الأمير يوسف بن تاشفين[3].

وهكذا، تنوّعت أغراض الوصيّة في الأندلس وتعدّدت مجالاتها واتّسعت سياقاتها سعة الحياة، لأنّها شملت جميع ظروف تعايش الفرد الأندلسي مع محيطه وأحواله المختلفة، ومهما اختلفت هذه الأغراض فإنّها اتّفقت في البحث عن مصلحة الإنسان الأندلسي وجلب المنفعة له ليسعد في دنياه وآخرته.

---

1)- الوصايا، ابن عربي: 19.

2)- ينظر؛ دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا: عصمت عبد اللّطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1408هـ/1988م: 173.

3)- ينظر؛ المرجع نفسه: 173.



موضومات يالوصيةّ عند لسان الد ّياييييبلخطيب

عاش ابن الخطيب في عهد دولة بني الأحمر التي شهدت ازدهارا حضاريا وعلميا مرموقا، كما عرفت فتنا واضطرابات سياسية لضعف الحكّام وصغر سنّهم واحتدام الصراع مع النصارى، ممّاأدى إلى بروز هذه الشخصية الفذة بفضل كفاءته ومواهبه المختلفة.

1- م بناوجن شخصية الد ناسلين الن ببيطخ:

أ- قطوف من حيابّ:

نشأ لسان الدين بن الخطيب(*) في مدينة غرناطة، آخر معاقل الإسلام بالأندلس، والتي كانت حينها مجمعا لكبار العلماء والأدباء، ومركزا من أهم مراكز الدراسات الإسلامية.

وهو ينتمي إلى بيت أصيل لما كان عليه أسلافه من العلم والأدب والمترلة الرفيعة، وهو مايشير إليه المقري في قوله: "وسعيد جده الأعلى أول من تلقب بالخطيب، فكان من أهل العلم والدين والخير، وكذلك سعيد جده الأقرب كان

---

*)- هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني ينتسب إلى قبيلة تدعى سلمان من اليمن، لكنه لوشي المولد، غرناطي النشأة، ولد في 25 من رجب 713هـ الموافق لـ 16 نوفمبر 1313م، وجده الأعلى سعيد هو أول من تلقب بالخطيب، واستمر هذا اللقب في أسرته من بعده. أما من الألقاب التي لقب بها فكان أشهرها لسان الدين وهي من الألقاب المشرقية، و"ذو الوزارتين"؛ أي وزارة السيف والقلم، و"ذو العمرين" بسبب إصابته بداء الأرق، لأنه لم يستطع النوم فلجأ إلى الكتابة والتأليف، و"ذو الميتتين" و"ذو القبرين" لأنه بعد أن قتل خنقا في سجنه أخرج ليلا من قبره وأوقد من حوله الحطب، فاسودت بشرته وأعيد إلى حفرته مرة ثانية وكان ذلك سنة 776هـ- 1375م.

على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه، وحساب وأدب، خيرا صدرا"[1]، وأما أبوه فكان من أهل العلم والأدب والطب[2]، إذ اعتلى مكانة مرموقة في البلاط النصري لحمراء غرناطة، حيث ارتقى إلى منصب الوزارة فيها[3].

وكان لهذه المكانة التي حظيت بها أسرته الأثر القوي في إعداد هذه الشخصية المتميزة من جوانب شتى، فقد وفر له والده من الناحية العلمية جهابذة العلماء الذين كانت تشع بهم مدينة غرناطة، فأخذ عنهم مختلف العلوم والآداب، فكتب في طفولته وحفظ القرآن على يد أبي عبد الله بن عبد المولى الذي ذكره بقوله: "قرأت كتاب الله عز وجل على المكتِّب نسيج وحده في تحمل المنَزَّل حق حمله تقوى وصلاحا، وخصوصية وإتقانا، ونغمة وعناية وحفظا وتبحرا في هذا الفن، واضطلاعا بضرايبه واستيعابا بسقطات الأعلام"[4].

ثم قرأ القرآن وعلوم العربية أيضا على أبي حسن القيجاطي، وقال فيه إنه: "أستاذ الجماعة، ومطية الفنون، وهو أول من انتفعت به"[5].

ومن الشيوخ أيضا: أبو حسن علي بن الجياب، –الذي أذكى مواهبه الأدبية والفنية–، والأستاذ الخطيب أبو عبد الله بن الفخـــار البيـــري، والشيخ أبو البركات الشهير الّذي نعته ببقية السلف، وأبو بكر بن شبرين، والخطيب أبو

1)- نفح الطيب: المقري، 8:5.

2)- المصدر نفسه، 5: 8.

3)- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، 4: 441.

4)- المصدر نفسه، 4: 457.

5)- المصدر نفسه، 458:4.

جعفر الطنجالي والقاضي أبو عبد الله المقري التلمساني[1]، وكذلـــك الرئيس أبو محمد الحضرمي السبتي، والشيخ أبو محمد بن أيوب المالقي آخر الرواة عن ابن أبي الأحوص، وأبو عثمان بن ليون من المرية، وأبو زكريا بن هذيل الذي أخذ عنه الطب والتعاليم وصناعة التعديل[2].

عاش ابن الخطيب هذه المرحلة مثل أبناء سلاطين الدولة النصرية وأمرائها[3]، فساعات ينهل فيها العلم، وساعات أخرى تجده يتقلب في أحضان رياض مدينتي لوشة وغرناطة متمتعا بخيراتهما ونعيمهما.

وأما حياته السياسية فتبدأ سنة (741هـــ— 1341م)[*] حين التحق بالخدمة بأمانة السر لدى أبي الحسن بن الجياب وزيرالسلطان أبي الحجاج يوسف، وسرعان ما لفت إليه اهتمام السلطان فكلفه ببعض المهام الجهادية[**]، وعينه كذلك في رئاسة الكتاب، أو ديوان العلامة والإنشاء خلفا لشيخه ابن الجياب

---

1)- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، 4: 458.

2)- المصدر نفسه، 4: 459.

3)- ينظر؛ فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب: المضامين والخصائص الأســلوبية، محمـــد مسعود جبران، 1:47.

*)- وهي السنة نفسها التي استشهد فيها أبوه وأخوه في معركة طريف الشهيرة "سلادو" وكـــان لهـــذه الحادثة أثر في حياة الرجل. عن: المرجع نفسه، 1: 48.

**)- لقد ألحقه السلطان أبو الحجاج يوسف بالجهاد في الحملة التي سارت لإنجاد ثغر الجزيرة الخضـــراء الذي حاصره القشتاليون .عن: المرجع نفسه، 1: 49.

بعد وفاته بداء الطاعون في شوال من سنة (749هـ- 1349م)، كما منحه رتبة الوزارة وألقابها[1].

وحين توفي السلطان أبو الحجاج على يد ممرور في سنة (755هـ- 1354م) يوم عيد الفطر، خلفه ابنه أبو عبد الله محمد الذي لقب بالغني بالله الذي حفظ المكانة التي كان عليها ابن الخطيب، بل أصبح في هذا العهد "سلطان حمراء غرناطة غير المتوج"[2]، لما حققه من نجاح باهر في مهامه الوزارية داخل القصر وخارجه[*]، فزادت ثروته ومكتسباته وذلك لما أغدق عليه السلطان من الهدايا والعطايا.

ولما قامت الثورة على الغني بالله عام (760هـ- 1359م)، ذاق ابن الخطيب خلال هذه الفترة العذاب ومرارة العيش بسبب كيد الحاسدين، حيث اعتقل وصودرت أملاكه، إلا أن شفاعة السلطان المريني أنقذته، فأطلق سراحه

1)- ينظر؛ فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب: المضامين والخصائص الأسلوبية، محمد مسعود جبران، 1: 49.

2)- المرجع نفسه، 1: 50.

*)- أرسل الغني بالله ابن الخطيب إلى المغرب سنة 755هـ- 1354م لتوطيد العلاقات بين بني الأحمر وبني مرين، ولما وصل إلى السلطان أبي عنان المريني استقبل استقبالا كبيرا، فأنشد قصيدة في مدحه تضمنت طلب العون للقضاء على مطامع القشتاليين، فأثرت هذه القصيدة في السلطان المريني لبلاغتها وحسن نظمها فاستجاب لطلبات لسان الدين و لم يرده خائبا. عن: ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: لسان الدين بن الخطيب، دراسة وتحقيق: محمد شريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1973: 57.

والتحق بالغني بالله سنة (761هـ)[1] وأقام بمدينة سلا، والحقيق بالذكر أن المغرب أحسن إليه وأكرم وجوده لما لقيه من حفاوة واحترام.

كما التقى في المغرب المفكر ابن خلدون، فتوطدت العلاقة بين الرجلين وانتفع كل منهما بالآخر علما وصداقة، غير أن وفاة زوجة ابن الخطيب سنة (762هـ) كان وقعها مؤثرا في حياته، وهكذا تراكمت الأحداث وتزاحمت عليه فلم يجد علاجا لهذا سوى الانقطاع للعبادة والزهادة والتأليف في ظل السكينة والهدوء اللذين وجدهما في المغرب[2].

ثم عاد إلى غرناطة في سنة (763هـ — 1361م) بعد أن أصدر الغني بالله ظهيرا يؤكد عودته ومكانته التي كان عليها، فعرفت غرناطة وقتها عهدا جديدا متطورا شمل جميع ميادين الحياة بفضل ذكاء ابن الخطيب الذي أعد خطة ساعدته على تحقيق ذلك، حيث ساد الأمن ورممت الثغور واستثمرت الجبايات[3].

لقد كانت عودة ابن الخطيب إلى غرناطة سلاحا ذا حدين؛ فعادت خيرا على دولة بني الأحمر وأثرت سلبا في حياته إن لم نقل عجلت بنهايتها ،وذلك بفضل سعاية خصومه ومنافسيه الذين أفسدوا علاقته بالسلطان الغني بالله، علما

1)- ينظر؛ ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: لسان الدين بن الخطيب: 59- 60.

2)- ينظر؛ المصدر نفسه: 64.

3)- ينظر؛ فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية:محمد مسعود جبران، 1: 56.

أن هؤلاء كانوا ممن أحسن إليهم كتلميذه محمد بن يوسف بن زمرك (733هـ— 797هـ) والقاضي أبي الحسن النباهي (713هـ— 792هـ)[1].

ولما أحس لسان الدين بخطر أعدائه واشتد الضيق عليه قرر اللجوء إلى العدوة الأخرى بعد أن أخبر السلطان عبد العزيز سرا عن ترك الأندلس، وعبر إلى المغرب سنة (773هـ— 1371م)، بعد أن تحجج لسلطانه الغني بالله بأن يسمح له بالقيام بجولة تفقدية إلى الثغور المغربية، كما ترك له رسالة مؤثرة يشرح له فيها الأسباب الموضوعية التي دفعته إلى ذلك[2].

وقد استقر مع أسرته بالمغرب إلى أن أرسل القاضي النباهي وثيقة يتهم فيها ابن الخطيب بالكفر والزندقة وكان ذلك سنة (773هـ— 1371م)، ومفاد التهمة بعض ما ورد في كتاب "روضة التعريف بالحب الشريف"، فدعا النباهي سلطان المغرب إلى تسليم لسان الدين لينال عقابه على تصرفاته، ولما وصل الخبر إلى سلطان غرناطة أرسل وفدا إلى المغرب برئاسة عبد الله بن زمرك ومعه وثيقة التهمة التي أعدها النباهي لمحاكمته[3]، فعذب وقتل بسجنه.

ب- مظاهر نبوغه:

لسان الدين بن الخطيب شخصية فذة وفريدة غلبت عليها ملامح النبوغ والألمعية منذ صغره، وقد ساعدته البيئة الغرناطية المزدهرة حضاريا وعلميا،

1)- يتظر؛ النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب: عبد الحليم حسن الهروط، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2006- 1426: 22.

2)- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام:لسان الدين بن الخطيب: 318— 319.

3)- ينظر؛ النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب: عبد الحليم الهروط: 23.

والحظوة التي كانت تتمتع بها أسرته على توفير الظروف المناسبة التي ساعدته على صقل مواهبه العديدة والمتنوعة وتطويرها، وذلك باطلاعه على مختلف العلوم والفنون[1]، وملامسته لمختلف الآداب وتفتحه وتعرّفه إلى ثقافات الأمم الأخرى، سواء من خلال رحلاته التي كان يقوم بها، وكثرة معارفه من الشخصيات المرموقة التي احتك وتفاعل معها.

و لم يكن لتحصيل لسان الدين أن يتوقف عند العلم والمعرفة بل امتد إلى السياسة، فقد تألق في ديوان الإنشاء بتحبيره لمختلف الرسائل والظهائر والعهود والبيعات... بفضل البراعة اللغوية التي كان يتمتع بها.

وهكذا كان لسان الدين بن الخطيب عبقري زمانه، تميز فكره بالموسوعية والشمولية؛ إذ جمع بين الأدب والسياسة والطب والتصوف والتاريخ والفلسفة وعلوم الدين... وانعكس ذلك في التراث الفكري الضخم الذي خلفه والذي انصب في تآليفه وكتبه، وهو ما أكده أحمد أمين في قوله: "فالذي يظهر لنا أن الثقافة الأندلسية من أولها إلى آخرها، قد صفيت وتقطرت في لسان الدين ابن الخطيب في تعدد مناحيه وسعة علمه وكثرة إنتاجه، ولعل هذا المعنى هو الذي شعر به المقري: فألف فيه كتابه "نفح الطيب" وفيه ثقافة الأندلس، وسماه باسمه كأنما هو هي"[2].

1)- ينظر: آفاق غرناطة بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي: عبد الحكيم الدنون، دار المعرفة، دمشق- سوريا، ط1، 1408- 1988م: 124.

2)- ظهر الإسلام: أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (د.ط)، 1962، 3: 224-225.

ومن آثـــاره:

- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب في أسفار ثمانية[1].
- استنزال اللطف الموجود في سر الوجود[2].
- التاج المحلى في مساجلة القدح المعلّى.
- الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة.
- طرفة العصر في دولة بني نصر في أسفار ثلاثة.
- ديوان شعري في سفرين: الصيب والجهام والماضي والكهام.
- اليوسفي في صناعة الطب في سفرين كبيرين[3].
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، في أربعة أسفار.
- عمل من طبَّ لمن حبّ[4].

وتعتبر تآليف ابن الخطيب القيمة خير شاهد على تضلع الرجل من مختلف العلوم والفنون، وتذوقه ضروب النظم والنثر، حيث يثني عليه ابن الأحمر، فيقول: "هو شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض، لا يدافع مدحه في الكتْب، ولا يجنح فيه إلى العتب"[5]، وذكره المقري بأنه: "الوزير الشهير الكبير، الطائر الصيت في المغرب والمشرق، المزري عرف الثناء

1)- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، 4: 459.

2)- المصدر نفسه، 4: 460.

3)- المصدر نفسه، 4 :461.

4)- المصدر نفسه، 4: 462.

5)- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان: إسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأحمر، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت- لبنان، (د.ط)، 1967: 243.

عليه بالعنبر والعبير، المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب، والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها"[1].

وقد كشفت هذه المؤلفات عن جوانب من حياة الرجل المليئة بالأحداث، وأهم القضايا التي شغلته وملأت عصره متخذا من صناعة الكتابة التي يسميها اليونانيون العلم المحيط وسيلة ناجعة في ذلك[2].

2- موضوعات الوصية عند ابن الخطيب:

خلف ابن الخطيب أدبا غزير المادة متنوع الأغراض والفنون التي كان من بينها وصاياه التي أنشأها ليفيد أهله وغيرهم، فقد استودع فيها خلاصة تجاربه المختلفة التي خاضها في حياته السياسية والاجتماعية الحافلة بالحوادث والخطوب، المتقلبة في الأحوال، والمتعاكسة في التيار، حيث عاش فيها الأفراح والأتراح، وعرف خلالها السعادة والشقاء.

كما أفرغ فيها نتاج عقله الزاخر بكثرة المعارف والفنون، المتشرب من مختلف القيم والثقافات والعادات والتقاليد، إضافة إلى أن الرجل كان ذا نزعة تأملية فلسفية عميقة، وأخرى صوفية روحية أراد بثها في أفكاره ومعانيه.

ولهذا فقد تنوعت وصايا ابن الخطيب نظرا لتشعب أفكاره، كما اختلفت من متلق إلى آخر، حسب ثقافته ومدى تكوينه المعرفي، ومنصبه في

---

1)- نفح الطيب: المقري، 5: 7.

2)- ينظر؛ فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية : محمد مسعود جبران، 2: 510.

الدولة ومكانته في المجتمع، وطبيعة علاقته بالموصي، وكذلك تبعا لحاله النفسية والاجتماعية، والظرف الزماني والمكاني الذي كتبت الوصية خلاله.

في ضوء ما ذكرناه يمكن تقسيم وصايا ابن الخطيب بالنظر إلى الموضوعات والأغراض التي طرقها إلى: وصايا خصها بتدبير شؤون السياسة والحكم، استخلصها من تجاربه السياسية الواسعة، وأخرى خصها بالزجر والوعظ وقد استقاها من حياة الزهد والتصوف، ومن معرفته بعلم الاجتماع والأخلاق... ووصية أهلية خص بها أولاده الثلاثة خصصنا لها فصلا مستقلا.

أ- الوصايا المتعلقة بتدبير شؤون السياسة وأمور الحكم:

يقول المستشرق الإسباني جنثالث بالنثيا: "تبلغ كتابة التاريخ في الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الميلادي ذروتها عند علمين من أعلام الفكر العربي، هما ابن الخطيب المؤرخ المتفنن والسياسي الأديب، وابن خلدون مبدع فلسفة التاريخ"[1].

لقد كان ابن الخطيب ذا مجد سياسي، حيث ذاع صيته وسطع نجمه لما أظهره من فطنة وقدرة وذكاء وقاد في تعامله مع قضايا الدولة والسياسة، وكان قمة في العطاء السياسي، وذلك من خلال المناصب السامية التي شغلها، والأعمال التي كان يكلف بها سواء داخل البلاط النصري الذي أدار شؤونه بمهارة سياسية وكفاءة إدارية عالية، أو خارجه من خلال المهام الدبلوماسية

1)- تاريخ الفكر الأندلسي: أنخيل جنثالث بالنثيا، نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، (د.ط)، (د.ت): 251.

والسفارية التي كان يؤديها بنجاح بفضل قوة دهائه ورجاحة عقله، أو رحلاته الجهادية التي كان يقوم بها.

وهكذا فقد عرك ابن الخطيب السياسة ممارسة ومرانا فأكسبته خبرة وتجارب، وزادته علما واكتشافا لمختلف خباياها، وملأت عقله بسياسة الحكام وطبائعهم وأفكارهم وهيئاتهم وأخلاقهم وميزاتهم المتعددة، وكل ما يتعلق بأسرار البلاطات وشؤونها، وهذا لتعامله معهم بصفة مباشرة، كما تشبع ذهنه بأحوال الوزراء والجنود...

ونتيجة لتعدد معارفه في السياسة وتنوعها، وعلو كعبه فيها، انتقل ابن الخطيب من مرحلة الممارسة والشغل فيها إلى مرحلة التقنين والتنظير لها، وهذا من خلال ما خلفه من نتاج نثري وشعري، كان خير ما جادت به قريحته من وصايا ومواعظ في مجال التربية السياسية ليتأدب بها كل من الحاكم والوزير والوالي...، فتحدث فيها عن مقومات الملك وشروط الوزارة وغيرها.

أ-1- مقومات الملك:

هي توجيهات سديدة يجب على أي حاكم أو سلطان أن يلتزم بها في إدارة شؤونه، لا غنى له عنها قديما أو حديثا، ضمنها خلاصة نظراته وتأملاته وتصوراته التي استمدها من تجاربه الكثيرة وخبرته الطويلة في خدمة الحكام والسلاطين وطول باعه في السياسة، كما شملها بجملة من المعارف اعتمد في

تحصيلها على الموروث الديني والتراث اليوناني[1] في إنشاء هذه الوصايا التي أراد بها مخاطبة أرباب الملك والسلطة وخاصة صغار السن منهم.

وقد نسج هذه الوصايا على شكل مقامة ممتعة غرضها التوجيه والوعظ السياسي، كتبها بأسلوب رشيق جمع بين فصاحة اللسان وحسن البيان، جعل فيها هارون الرشيد تارة ملكا وتارة أمير المؤمنين، أما بطلها فهو "رجل أشعث أغبر، فارسي الأصل، أعجمي اللسان، عربي الفصل"[2].

وقد أسقط ابن الخطيب معارفه بهذا البحر الشاسع الذي تتلاطم أمواجه وتتغير أحواله، والفن الواسع الذي تتعدد أغراضه وتتنوع أشكاله ألا وهو السياسة على لسان بطل المقامة، واشتمل حديثه في سياق هذا الوعظ السياسي على أهم مقومات الملك؛ حيث ابتدأ كلامه بالحديث عن الرعية وحقوقها ثم أعوان الملك، فأهله وأخيرا خص السلطان أو الحاكم بمجموعة من الوصايا:

حقوق الرعية: تعتبر الرعية من أهم الأسس التي تقوم عليها الدول؛ فهي عمادها وقوام ملكها ومهابة جلالها، وهي حصن منيع في الذود عن مصالح الدولة، لهذا وجب على المسؤول الأول في الحكم حمايتها ورعايتها كما وجب عليه أن يضمن حقوقها ويكفلها: "رعيتك ودائع الله قبلك، ومرآة العدل الّذي عليه جبلك، ولا تصل إلى ضبطهم [إلا بإعانته] التي وهب لك، وأفضل ما

1)- ينظر؛ ملامح يونانية في الأدب العربي: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 1977: 176.

2)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، حققه ووضع مقدمته وحواشيه: محمد عبد الله عنان، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة- مصر، ط1، 1401هـ- 1981م، 2: 317.

استدعيت به عونك فيهم، وكفايته التي تكفيهم، تقويم نفسك عند قصد تقويمهم، ورضاك بالسهر لتنويمهم، [وحراسة كهلهم ورضيعهم، والترفع عن تضييعهم]، وأخذ كل طبقة بما عليها، ومالها، أخذا يحوط مالها، ويحفظ عليها كمالها، ويقصر عن غير الواجب آمالها، حتى تستشعر عليها رأفتك وحنانك، تعرف أوساطها في [النِّصب امتنانك]"[(1)].

ويوصي الملك بالقيام بمجموعة من الأمور تجاه رعيته، فهو يحذره من السفلة، ويدعوه إلى تحديد دور كل طبقة منها على ألا تتعدى كل واحدة حدودها، وعليه كذلك أن يمنع الأغنياء من البطر والبطالة والوقوع في الشبهات، وأن لا يبخل بنصائحه عليها: "وتحذَر سِفْلَتُها سنانك، وحظر على كل طبقة منها، أن تتعدى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوز بأمر طاعتها طورها وسد فيها سبل الذريعة، واقصر جميعها على خدمة الملك بموجب الشريعة، وامنع أغنيائها من البطر والبطالة، والنظر في شبهات الدين بالتَّمشدُق والإطالة، وليقلّ فيما شجر بين السلف كلامها، وترفض ما ينبز به أعلامها، فإن ذلك يسقط الحقوق ويرتب العقوق، وامنعهم من فحش الحرص والشره، وتعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من الموه"[(2)].

كما يذكره بأن يحض رعيته على التخلق ببعض الخلال الحسنة، والأخذ بالنافع من الأمور: "واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحسن المذاهب وانههم عن التحاسد على المواهب، ورضهم على الإنفاق بقدر الحال، والتعزي

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب ، 2: 318.

2)- المصدر نفسه، 2: 318- 319.

عن الفائت، فرده من المحال، وحذر البخل عن أهل اليسار، والسخاء على أولي الإعسار، وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر، وامنعهم من تأويلها منع القاهر"[1].

كما يوجه الحاكم إلى منهاج يوضح له فيه كيفية تعامله مع رعيته، وخاصة المحكومين عليهم منهم:"ولا تبح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم، ولتكن غايتهم فيما توجهت إليه إبايتهم، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم، إنهاؤه إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك، المحافظين على أوقاتك. وقدم منهم من أمنت عليهم مكره، وحمدت على الإنصاف شكره، ومن كثر حياؤه مع التأنيب، وقابل الهفوة باستقالة المنيب، ومن لا يتخطى عندك محله الذي حله فربما عمد إلى المبرم فحله. وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة، واغتفر المكاره في جنب حسن الطاعة. وإن ثار جرادهم واختلف في طاعتك مرادهم، فتحصن لثورهم، واثبت لفورهم [فإذا سألوا وسلوا، وتفرقوا وانسلّوا، فاحتقر كثرهم، ولا تقل عثرهم] واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا، ولا تترك لهم على حلمك اتكالا"[2].

أركان الملك: قسم الكاتب في هذا الكلام الوعظي بعد حديثه عن الرعية أركان الملك إلى أعوان الحاكم وأهله؛ فمن هم أعوان الحاكم؟

الوزير:

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 319.

2)- المصدر نفسه، 2: 319.

للوزير في منظور لسان الدّين مكانته السّامية في الدّولة، ودور خطير يؤدّيه؛ إذ يقول: "والوزير الصالح أفضل عددك، وأوصل مددك [فهو الذي] يصونك عن الابتذال، ومباشرة الأنذال، ويثب لك على الفرصة، وينوب في تجرع الغصة، واستجلاء القصة، ويستحضر ما نسيته من أمورك، ويغلب فيه الرأى بموافقة مأمورك، ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه، حتى يستوفيه"[(1)].

ثم يوصي الحاكم بأن يكون حذرا في اختيار وزيره، وأن يستخير الله في ذلك، حيث يجب أن يكون من بيت أصيل، ومن نسب معروف، عادلا وزاهدا، ومخلصا ومتيقظا، واسع المعرفة والاطلاع؛ إذ يقول: "واحذر مصادمة تياره، والتجوز في اختياره، وقدم استخارة الله في إيثاره، وأرسل عيون الملاحظة في آثاره، وليكن معروف الإخلاص لدولتك، معقود الرضاء والغضب برضاك وصولتك، زاهدا عما في يديك، مؤثرا كل ما يزلف لديك، بعيد الهمة، راعيا للأذمة، كامل الآلة، محيطا بالإيالة، رحب الصدر، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحي والميت، مؤثرا للعدل والإصلاح، دربا بحمل السلاح، ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها، وظهرها وسرجها، صحيح العقد، متحرزا من النقد، جادا عند لهوك، متيقظا في حال سهوك، يلين عند غضبك، ويصل الإسهاب بمقتضبك، قلقا من شكره دونك وحمده، ناسبا لك الأصالة بعمده"[(2)].

ثم يدعو في آخر كلامه، الملك أن يحافظ على وزيره ويرعى حقوقه، كما يدعوه إلى اجتناب الطامع والطامح منه إلى سدة الحكم، فيقول: "وساو في

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 320.

2)- المصدر نفسه، 2: 320.

حفظ غيبه بين قربه ونأيه، واجعل حظه من نعمتك موازيا لحظك من حسن رأيه، واجتنب منهم من يرى في نفسه إلى الملك سبيلا، أو يقود من عيصه للاستظهار عليك قبيلا، أو من كاثر مالَك مَاله، أو من تقدم لعدوك استعماله، أو من سمت لسواك آماله، أو من يعظم عليه إعراض وجهك، ويهمه نادرة نهجك، أومن يداخل غير أحبابك، أو من ينافس أحدا ببابك"[1].

الجند:

وأمّا الجند، فينصح الملك بأن يستوفوا شرائط الخدمة، وأن يجتنبوا الكسل والراحة، ويلتزموا بالجدية في العمل؛ إذ يقول: "وأما الجند فاصرف التقويم منهم للمقاتلة والمكايدة والمخاتلة، واستوف عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، ووف ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة، وتعاهدهم عند الغناء بالعلف والطعمة، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه، وطاب في الذب عن ملتك ثناؤه، ودل عليهم النبهاء من خيارهم، واجتهد في صرفهم عن الافتنان بأهلهم وديارهم"[2].

كما يحثه على دفعهم لخوض الحروب والمعارك بكل شجاعة وإقدام، وبإشهار السلاح في وجه العدو والتقدم نحوه كلما اقتضت الضرورة، إذ يقول: "ولا توطئهم الدعة مهادا، وقدمهم على حفظك وبعوثك متى أردت جهادا، ولا

1)- ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 320– 321.

2)- المصدر نفسه، 2: 321.

تلن لهم في الإغماض عن حسن طاعتك قيادا، وعودهم حسن المواساة بأنفسهم اعتيادا، ولا تسمح لأحد منهم بإغفال شيء من سلاح استظهاره، أو عدة اشتهاره"[1].

كما ينصحه بمنعهم من المستغلات، إذ يذكرهم بأن كسبهم من الغنائم وما يعود عليهم من الغزو؛ إذ يقول: "وامنعهم من المستغلات والمتاجر، وما يتكسب منه غير المشاجر، وليكن من الغزو اكتسابهم، وعلى المغانم حسابهم، كالجوارح التي تفسد باعتيادها، أن تطعم من غير اصطيادها"[2].

وفي هذا المقطع الوصائي يوجه الحاكم إلى ضرورة حسن اختياره لجنده، وتقويم رتبهم حسب خلالهم ومدى طاعتهم وإخلاصهم ليسود الاحترام بينه وبينهم؛ إذ يقول: "واعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان، وفضل اللسان، ويملك حركاتها بالتقويم، ورتَبها بالميزان القويم، ومن تثق بإشفاقها على أولادها، وتشتري رضا الله بصبرها على طاعته وجِلادها، فإذا استشعرت لها هذه الخلال، تقدمتك إلى مواقف التلف، مطيعة دواعي الكَلَف، واثقة منك بحسن الخُلَف"[3].

كما يذكره بضرورة التنويه بقيمة المخلص من الجند الذي يضحي بالنفس والنفيس من أجل حاكمه وملكه، والثناء عليه: "واستبق إلى تمييزه استباقا، وطبقهم طباقا، أعلاها من تأملت منه في المحاربة عنك إحضاراً،

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 321.

2)- المصدر نفسه، 2: 321.

3)- المصدر نفسه، 2: 321-322.

وأبعدهُم في مرضاتك مطارا، وأضبطهُم لما تحت يدك من رجالك حزما ووقارا، واستهانة بالعظايم واحتقارا، وأحسنُهم لمن تقلده أمرك من الرعية جوارا، وإذا أجدت اختيارا، وأشِدهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطبارا، ومن بلى في الذب عنك إحلاء وإمرارا. وبعده من كانت محبته لك أكثر من نجدته، وموقع رأيه أصدق من موقع صعدته. وبعده من حسُن قياده لأمرائك وإحماده لآرائك، ومن جعل نفسه من الأمر حيث جعلته، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله"[1].

العمال:

لقد بين للملك مكانة العمّال ومترلتهم، ذلك أنهم يبينون عن مذهبه واتجاهه أمام رعيته، لذا وجب عليه إكرامهم والإحسان إليهم حسب تفانيهم وإخلاصهم في العمل؛ إذ يقول: "وأما العمال فإنهم يبينون عن مذهبك، وحالهم في الغالب شديد الشبه بك، فعرفهم في أمانتك السعادة، وألزمهم من كرامتك بحسب منازلهم في الاتصاف بالعدل والإنصاف، وأحلهم من الحفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية، وقفهم عند تقليد الأرجاء مواقف الخوف والرجاء، وقرر في نفوسهم أن ما به إليك تقربوا، وفيه تدربوا وفي سبيله أعجموا وأعربوا، إقامة حق، ودحض باطل، حتى لا يشكو غريم مطل ماطل، وهو آثر لديك من كل رِباب هاطل"[2].

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 322.

2)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 322– 323.

كما يحذره من العمال الخاملين ممّن لا يجيدون الحساب وألفوا الكسل، فيقول: "واجتنب منهم من غلب عليه التخرق في الإنفاق، وعدم الإشفاق، والتنافس في الاكتساب، وسهل عليه سوء الحساب، وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية، دون التقصي والكفاية، ومن كان منشؤه خاملا، ولأعباء الدناءة حاملا، وابغ من يكون الاعتذار في أعماله، أوضح من الاعتذار في أقواله، ولا يفتننك من قلدته اجتلاب الحظ المطمع، [والتنفق بالسعى المسمع]، ومخالفة السنن المرعية [وإتباعه رضاك بسخط الرعية]، فإنه قد غشك من حيث بلّك ورشك، وجعل من يمينك في شمالك حاضر مالك"[1].

وأمّا أهل السلطان، فقد خصّهم لسان الدين، باعتبارهم من الركائز التي تقوم عليها الدولة، بنصائح تسهم في تحقيق النظام والانضباط، لأن الاستقرار الداخلي في القصر يضمن الاستقرار السياسي داخل المملكة وخارجها، وذلك نتيجة لمعرفة الكاتب العميقة بخبايا القصور والبلاطات وأسرارها، وإدراكه لطبيعة الصراعات والفتن التي تجري فيها، وخص بالذكر الولد والخدم والحرم:

1)- المصدر نفسه، 2: 323.

الولد:

يعتبر أولاد الحكام في سياسة القصور والممالك امتدادا لآبائهم، وحتى يكونوا خير خلف لخير سلف خصهم الكاتب في خطابه الوصائي بمجموعة من النصائح التوجيهية، فقد نبه الحاكم إلى ضرورة تربيتهم أفضل تربية وتأديبهم بأحسن الآداب؛ إذ يقول: "وأما الولد فأحسن آدابهم، واجعل الخير دأبهم، وخِف عليهم من إشفاقك وحنانك، أكثر من غلظة جنانك، واكتم عليهم ميلك، وأفض عليهم جودك ونيلك، ولا تستغرق بهم بالكلف بهم يومك ولا ليلك، وأثبهم على حسن الجواب [وسبّق إليهم] خوف الجزاء على رجاء الثواب"(1).

كما يحثه على تعليمهم الصبر على المصائب والمحن، وتعويدهم على خوض التجارب بالممارسة والمران، وتزويد عقولهم بمختلف العلوم والفنون، فيقول: "وعلمهم الصبر على الضرائر، والمهلة عند استخفاف الجرائر، [وخذ لهم] بحسن السرائر، وحبب إليهم مَراس الأمور الصعبة المِراس، وحصّن الاصطناع والاغتراس والاستكثار من أولى المراتب والعلوم، والسياسات والحلوم، والمقام المعلوم"(2).

ويذكره بضرورة تجنيبهم كل خلق ذميم: "وكره إليهم مجالسة الملهين، ومصاحبة الساهين، وجاهد أهواءهم عن عقولهم، واحذر الكذب على مقولهم، ورشّحهم إذا أنست منهم رشدا أو هديا، وأرضعهم من المؤازرة والمشاورة ثديا،

1)- ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 324.

2)- المصدر نفسه، 2: 324.

لتمرنهم على الاعتياد، وتحملهم على الازدياد، ورُضهم رياضة الجياد، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم، وأعداؤُك في الحقيقة وأعداؤهم، وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت، [واقدعها إذا هجمت]، قبل أن يظهر تضعيفها، ويقوى ضعيفها، فإن أعجزتك في صغرهم الحيل، عظم الميل.

إنّ الغصونَ إذا قَوَّمْتَهَا اعْتَدَلَت ولَنْ تَلِينَ إِذا قَوَّمَتْها الخُشُبُ"[1]

الخـــدم:

جاء تصنيف الخدم بين العمال وأهل السلطان، ذلك أنهم يمثلون ركنا أساسيا في الدولة لاتصالهم اتصالا مباشرا بالحاكم، وهم في الوقت نفسه أشياع السلطان لأنهم ينتمون إلى القصر، لهذا يجب حفظهم وصيانتهم:" وأما الخدم فإنهم بمترلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع، وتبصر وتسمع، فردهم بالصدق والأمانة، وصنهم صون الجفانة، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما آثره، والتقليل مما استكثرته"[2].

غير أنّ لسان الدّين يحذّر الحاكم من الخدم ممن غلبت عليهم شهواته واتبع اللهو، فيقول: "واحذر منهم من قويت شهواته، وضاقت عن هواه لهواته، فإن الشهوات تنازعك في استرقاقه، وتشاركك في استحقاقه، وخيرهم من ستر ذلك عليك بلطف الحيلة، وآداب للفساد مخيلة"[3].

1)- ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2:324– 325.

2)- المصدر نفسه، 2: 325.

3)- المصدر نفسه، 2: 325.

كما يدعوه إلى تذكيرهم بأن الحاكم هو صاحب السلطة، وكلامه هو الأصح والأحق بمراعاته وتنفيذه: "وأشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واستترلته، وأن الباطل في كل ما جانبته واعتزلته، وأن من تصفح منهم أمورك فقد أذنب، وباين الأدب وتجنب"[1].

ويخبره بأن عطايا الخدم تكون حسب أعمالهم ومدى إخلاصهم وإحسانهم: "وأعط من أكددته، وأضقت منهم ملكه وشددته، روحة يشتغل فيها بما يغنيه، على حسب صعوبة ما يعانيه، تغبطهم فيها بمسارحهم، وتجم كليلة جوارحهم، ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذي لا يبطر أعلامهم، ولا يؤسف [الأصاغر فيفسد] أحلامهم، ولا ترم محسنهم بالغاية من إحسانك واترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك"[2].

وينبه الحاكم إلى مجموعة من الأوصاف والخلال يشترط أن تتوفر في الخدم حتى يفوزوا بخدمته وثقته ورضاه، ونذكر من هذه الشروط قوله: "واستخلص منهم لسرك من قلت في الإفشاء ذنوبه، وكان أصبرهم على ما ينوبه، ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك، أكثر من رغبته في إحسانك، وضبطه لما تقلده من وديعتك، أحب إليه من حسن صنيعك، وللسفارة عنك من حلا الصدق في فمه، وآثره ولو بإخطار دمه، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله، وعنى بلفظه حتى لا يهمله، [ولمن تودعه أعداء] دولتك،

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بي الخطيب، 2: 325.

2)- المصدر نفسه، 2: 325— 326.

من كان مقصور الأمل، قليل القول صادق العمل، ومن كانت قسوته زائدة على رحمته، وعظمه في مرضاتك آثر من شحمته، ورأيه في الحذر سديد، وتحرزه من الحِيل شديد، ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه، وامتد في حسن السجية باعه، وأُمن كيده وغدره، وسلم من الحقد صدره، ورأى المطامع فما طمع، واستثقل إعادة ما سمع، وكان بريا من الملال، والبشر عليه أغلب الخلال"[1].

الحـــرم:

بدأ حديثه عن الزوجات بذكر فضائلهن من حيث إنّهن من يحملن الولد ويضعنه، وموضع للراحة والسكينة، مع ذكر بعض الميزات والمثل التي يجب أن يتحلين بها، فيقول: "وأما الحرَم فهنّ مغارس الولد، ورياحين الخلد، وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار، والنفس التي تقسَّمها الإحْماد إلى المساعى والإنكار، فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم، المترفعة عن القيم، ما لا يسوؤك في خلدك، أن يكون في ولدك، واحذر أن تجعل لفِكْر بشرٍ دون بصر إليهن سبيلا، وانصب دون ذلك عذابا وبيلا، وارعهن من النساء العجز من فاقت في الديانة والأمانة سبيله، وقويت غيرته ونبله"[2].

ثم يدعوه إلى معاملتهن بالمعروف، وتحقيق المساواة والإنصاف بينهن في الحقوق وذلك تجنبا للغيرة والتحاسد، ودفعا عن الحقد الذي قد يملأ صدورهن

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 326.

2)- المصدر نفسه، 2: 327.

فيؤدي إلى التشاجر والتفرقة: "وخذهن بسلامة النيات، والشيم السنيات، وحسن الاسترسال، والخلق السلسال، وحظر عليهن التغامز والتغاير، والتنافس والتخاير، وآس بينهن في الأغراض، والتصامم عن الأعراض، والمحاباة بالإعراض. وأقلل من مخالطتهن، فهو أبقى لهمتك، وأسبل لحرمتك، ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال، وضيق الاحتمال، بكثرة الأعمال، وعند الغضب والنوم، والفراغ من نصب اليوم، واجعل مبيتك بينهن تنمّ بركاتك. وتستقر حركاتك"[1].

كما يحذره من أن يطلع حرمه على أموره، وأيضا من ظهورهن بزينتهنّ أو متبرجات على الخدم أو غيرهم: "ولا تطلق لحرمة شفاعة ولا تدبيرا، ولا تنط بها من الأمر صغيرا ولا كبيرا، واحذر أن يظهر على خدمهن في خروجهن عن القصور، وبروزهن من أجمة الأسد الهصور، زيٌّ مفارع، ولا طيبٌ للأنوف مسارع، وأَخصص بذلك من طعن في السن، ويئس من الإنس والجن، ومن توفر التروع إلى الخيرات قبله، وقصر عن جمال الصورة ووُسِم بالبلَهِ"[2].

الحاكم: لقد خصّ لسان الدّين الحاكم بمجموعة من الإرشادات والتوجيهات استوحاها من تجربته في الحياة وأجراها على لسان بطله، فدعاه إلى:

ضرورة الالتزام بالعدل والإنصاف، والتروي في إصدار الأحكام حتى تقام الحجة والبرهان، وتثبيت الدليل لكي لا يظلم أحد، فيقول: "فاحذر أن يعدل بك غضبك، عن عدل تزرى منه ببضاعة، أو يهجم بك رضاك على

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 327.

2)- المصدر نفسه، 2: 327– 328.

إضاعة. ولتكن قدرتك وقفا على الاتصاف بالعدل والإنصاف، واحكم بالسوية واجنح بحسن تدبيرك إلى حسن الروية، وخف أن تقعد بك أناتك عن حزم وتعين، أوتستفزك العجلة في أمر لم يتبين. وأطع الحجة ما توجهت عليك، ولا تحفل بها إذا كانت إليك، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك، والحق أجدى من نفرك"[1].

وأوصاه بأن يكون ناصحا واعظا،لا يرد من طلبه، فيقول: "ولا تردن النصيحة في وجه، ولا تقابل عليها بنجه، فتُمْنَها إذا استدعيتها، وتحجب عنك إذا استوعيتها، ولا تستدعها من غير أهلها، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها"[2].

وأن يحرص على استغلال أوقاته في صالح الأعمال وما يعود عليه بالنفع والفائدة: "واحرص على أن لا ينقضي مجلس جلسته، أو زمن اختلسته، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة، أو وثقت منه في معادك بفائدة"[3].

وحثه على الاستكثار من جمع المال لأنه عامل فعال ومهم في حياة الدول، وكذلك بادخاره لوقت الحاجة والنوائب والحروب، فيذكر: "ولا يزهدنك في المال كثرته، فتقل في نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغائب، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب، فالمال المصون أمنع الحصون. ومن قل ماله قصرت آماله، وتهاون بيمينه شماله، والملك إذا فقد خزينه، أنحى على أهل الجدة التي تزينه، وعاد على رعيته بالإجحاف، وعلى جبايته بالإلحاف، وساء معتاد

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 328.

2)- المصدر نفسه، 2: 328.

3)- المصدر نفسه، 2: 328.

عيشه، وصغر في عيون جيشه، ومنوا عليه بنصره، وأنفوا من الاقتصار على قصره، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه،وتربط آمال أهل السلاح به"[1].

وأعلمه بأن يجعل المال وسيلة تقربه من الله عز وجل، وذلك بإنفاقه في سبيل الله وفي خدمة الدين، وليس بصرفه في الشهوات والمعاصي، فيقول: "والمال نعمة الله تعالى، فلا تجعله ذريعة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه، واستأنس بحسن جوارها، واصرف في حقوق الله بعض أطوارها، فإن فضل المال عن الأَجَل فَأَجِّل، ولم يضر بين يدي الله عز وجل، وما ينفق في سبيل الشريعة، وسد الذريعة، مأمول خلفه، وما سواه فمستيقن تلفه"[2].

ولفت انتباهه إلى ضرورة حسن اختيار حاشيته، فيقول: "واستخلص لحضور نواديك الغاصة، ومجالسك العامة والخاصة، من يليق بولوج عتبها، والعروج لرتبها"[3] فقد خص العامية بمجموعة من الأوصاف كرفعة المترلة والتزود بالعلم... "أما العامية فمن عظم عند الناس قدره، وانشرح بالعلم صدره، أو ظهر يساره، وكان لله إخباته وانكساره، ومن كان للفتيا منتصبا، وبتاج المشورة معتصبا"[4]، وشمل الخاصية ببعض الصفات كمن رقت طباعه، وتخلق بأخلاق الكرماء: "وأما الخاصِّية فمن رقت طباعه، وامتد فيما يليق بتلك

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 328– 329.

2)- المصدر نفسه، 2: 329.

3)- المصدر نفسه، 2: 329.

4)- المصدر نفسه، 2: 329.

المجالس باعه، ومن تبحر في سير الحكماء، وأخلاق الكرماء، ومن له فضل سافر، وطبع للدنية منافر، ولديه من كل ما تستتر به الملوك عن العوام حظ وافر. وصف ألبابهم بمحصول خيرك، وسكن قلوبهم بيمن طيرك، وأغنهم ما قدرت عن غيرك"[1].

كما أوصاه بتوقير العلماء والرّفع من قدرهم، فبهم يشعّ نور العلم وترتقي الحضارة، وهم أهل للمجالسة والانتفاع، فقال: "واعلم أن مواقع العلماء من ملكك، مواقع المشاعل المتألقة، والمصابيح المتعلقة، وعلى قدر تعاهدها تبذل من الضياء، وتجلو بنورها صور الأشياء، وفرّعها لتحبير ما يزين مدتك، ويحسن من بعد البلى جِدّتك"[2].

وأن يحثهم على إقامة العمران وتخليد الآثار لتبقى واضحة مدى الدهر؛ إذ يقول: "وبعناية الأواخر ذكرت الأوائل، وإذا محيت المفاخر خربت الدول، واعلم أن بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي منها والدان"[3].

ويواصل لسان الدين بن الخطيب مد الحكام بالمواعظ والنصائح السياسية، فبعدما أبدع في رسمها نثرا، نظمها بعد ذلك شعرا، وهذا من خلال قصيدته "المدح الغريب في الفتح القريب"، ومما تضمنته: توصية الحاكم بالحزم، فيقول:

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 329.

2)- المصدر نفسه، 2: 329— 330.

3)- المصدر نفسه، 2: 330.

لا تُغْفِل الحَزْمَ الَّـــذِي بِعِقالِـــهِ إبِلُ الإمَارَةِ والإدَارَةِ تُعْقَـــلُ[1]

وينصحه كذلك بأن لا يستخف بقيمة صغائر الأمور وذلك لأهميتـــها وخطرها، فيقول:

والأمرُ تَحْقرُه وقَد يَنْمِي كَمَـــا تنْمِي الجُسُومُ عَلى الغِذَاءِ وتَعْبَـــلُ

فاحْذَر صَغِيرَ الأَمْرِ ولْتَحْفَل به وإذا غَفَلْـــتَ فَإِنَّـــه يُسْـــتَعْجَلُ

والنَّارُ أوَّلُ مَا تَكُون شَـــرَارَة والغَيْثُ بَعْد رَذَاذِهِ يَسْتَرْسِـــلُ[2]

كما يدعوه إلى ضرورة مشاورة أهل الحكمة وذوي الرأي الصـــائب، فيقول:

شَاوِرْ إذَا الشُّورَى دَعَتْكَ، أُولِي النُّهَى فَخِطَابُ غَيْر أُولِي النُّهَى لا يَجْمُلُ[3]

وكذلك ينبهه إلى وجوب صيانة اللّسان عن كل ما هو قبيح وذمـــيم، فيقول:

وصُنِ اللِّسَان عَن القَبِيحِ فَرُبَّمَا يَمْضِي اللِّسَانُ حَيْث يَنْبُو المنصلُ

وإذا جَرَحتَ فُؤَادَ حُرٍّ لَم تُطِقْ إدْمَالَهُ وبِأَيِّ شَـــيْءٍ يَـــدْمُلُ[4]

وقد دلّت هذه الوصايا على المعرفة الدّقيقة الّتي اكتسبها ابن الخطيب من تواصله مع الحكّام وتقرّبه إليهم، والتي صبّها في هذه النّصائح والمواعظ.

---

1)- الديوان: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغـــرب، ط2، 2007م، 2: 503.

2)- المصدر نفسه، 2: 503.

3)- المصدر نفسه، 2: 503.

4)- المصدر نفسه، 2: 504.

أ-2- شروط الوزارة أركوانها:

للوزير دور بارز ومهم في سياسة الدولة؛ إذ هو من تسند إليه أعباء شؤون المملكة ومسؤوليات الحاكم في تسيير شؤون دولته، ونظرا لأهمية الوزير في الدولة خصه ابن الخطيب بمجموعة من الوصايا تمثل منهاجا صحيحا يسير عليه وخطة محكمة يعتدّ بها في أداء مهامه، حيث احتوت مختلف الأفكار والآراء والنظريات التي اختزنها عقله من خبرته الطويلة بشؤون الوزارة وتحمل أتعابها.

وقد صنع هذه الوصايا هي الأخرى في شكل مقامة بناها على غرض النصح والتهذيب السياسي، والراجح أنه قد قدمها لوزير مغربي يدعى عمر بن عبد الله الفودودي لما كان يقيم في المغرب، غير أنه أجرى الحوار فيها على لسان الحيوان متأثرا بكتاب كليلة ودمنه، فيذكر: "وصدر لهذا العهد عني موضوع سميته الإشارة إلى أدب الوزارة، مقول لألسنة الحيوان ككتاب دمنة وكليلة صغير الحجم، كثير الفائدة، غريب المأخذ، حرك إليه المجلس في هذا المعنى، والحمد لله"[1].

لقد جعل في هذه المقامة البطل نمرا كان وزيرا ذا خلق حميد أدى مهامه بكل أمانة وصدق ووفاء، ولما تقدم به السن أراد الركون للراحة والانقطاع للعبادة والزهادة وهذا بعدما تقدم بطلب للأسد وهو في المقامة ملك الوحوش، فأذن له بذلك كما أمره بأن ينصب ولده مكانه وطلب منه أن يملي عليه

1)- نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب، 1: 472، عن: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية: محمد مسعود جبران، 2: 97.

خلاصة تجربته وحنكته خلال ممارسته مهام الوزارة، وهذا حتى يكون خلفا صالحا لوالده يحسن التفكير ويجيد التدبير ويؤدي مهامه على أفضل وجه.

وقبل أن يشرع في سرد وصاياه، ذهب إلى تذكير وزيره بقيمة الوزير العظيمة ودوره في تسيير دواليب شؤون الدولة؛ فهو من بين الركائز الأساسية التي تقوم عليها الدولة، حيث إذا صلح صلحت أمور الدولة واستقام أمر رعيتها وإذا فسد فسدت معه أمور الدولة وأمور رعيتها؛ إذ يقول: "اعلم يا ولدي أن هذه الرتبة لمن فهم وعقل، مشتقة من الوزر، وهو الثقل، لأنها تحمل من عبء الملك وثقله ما تعجز الجبال عن حمله، وهي الآلة التي بها يعمل، وبحسب تباينها يتباين منها الأنقص والأكمل، وعصاه التي بها يهش، ويحتطب ويحش، ويلتقم ويمش، ويجمع ويفش، ومخلبه الذي به يزق الفرخ، ويحرس العش، ومنجله الذي يعرف به من يناصح ومن يغش، ومرآته التي يرى بها محاسن وجهه وعيوبه، وسمعه الذي يتوصل بحاسته لمعرفة الأشخاص المحجوبة. وإذا فسد الملك وصلح الوزير، ربما نفعت السياسة واستقام التدبير، وصلاح الأمر بعكس هذه الحال محسوب من المحال لأن الواسطة القريبة، ونكتة السياسة الغريبة، وموقعه من الملك موقع اليدين من الجسد، اللتين في القبض والبسط عليهما يعتمد"[1].

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض شروط الوزير التي استقاها من الطرائق التي كان ينتهجها الأقدمون من حكماء اليونان؛ إذ يذكر: "وكان الوزير فيهم، يشترط فيه أن يكون قديم النعمة، بعيد الهمة، مكين الرأفة والرحمة،

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 340.

كريم العيب، نقي الجيب، مسدد السهم، ثاقب الفهم، واثبا عند الفرصة، واصفا للقصة، مريحا في الفصة، موفور الأمانة، أصيل الديانة، قاهرا للهوى، مستشعرا للتقوى، مشمرا عن الساعد الأقوى، جليل القدر، رحيب الصدر، مشهور العفة، معتدل الكفة، حذرا من النقد، صحيح العقد، راعيا للهمل، نشطا للعمل، واصلا للذمم، شاكرا للنعم، خبيرا بسر الأمم، ذا حنكة بالدخل والخرج، عفيف اللسان والفرج، غير مغتاب ولا غيابة، ولا ملق ولا هيابة، مجتزئا بالبلاغ، مشتغلا عند الفراغ، مؤثرا للصدق، صادعا بالحق، حافظا للأسرار، مؤثرا للأبرار، مباينا بطبعه لخلق الأشرار، وقد فاق قدر هذه الرتبة بين الأقران، وأعطى وزاها"[1].

ثم ذهب إلى سرد الوصايا المتعلقة بشروط الوزارة، وقد جعلها ستة أركان:

الركن الأول: وهو "العقد المعول عليه، فيما يستشعر الوزير بينه وبين نفسه"[2]، حيث أعلمه بأن الوزير يكون امتدادا لحاكمه، ينوب عنه إذا غاب ويذكره لحظة سهوه، فيقول: "واعلم أن المملكة البشرية، الخليقة بالافتخار، الحرية، لما كان راعيها مركبا من أضداد متغايرة، وأركان متفاسدة متضارة، ويجذبه كل منها إلى طبعه أخذا برجاء، مدافعا بضبعه، لم يمكن حراسة ما وكل إليه بنفسه، ولا وقت بضم منتثرها آلات حسه، فاحتاج إلى وزير من جنسه،

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 342.

2)- المصدر نفسه، 2: 342.

ينوب مهما غاب عن شخصه، ويضطلع بتتميم نقصه، ويتيقظ في سهره، ويجد عند لهوه"[1].

ويذكره بأن يكون تقيا، مدركا لحدود الله، وأن يلتزم التقوى والإخلاص في العمل... وتلقين هذه المبادئ إلى العامة الخاصة من الرعية حتى يسود الأمن ويعم الرخاء؛ إذ يقول: "وتقوى الله عز وجل أول ما قدمته، ثم تدليل بيتك لمن خدمته، ومقابلة ثقتك بك، بالوفاء الذي سددت إن التزمته، وحمل الخاصة والعامة على حكم الشرع، فإن لم تبن على ذلك هدمته، وأفضل ما وهب لك فيما قلدته من قلاده وعودته من عادة وسيادة، شمول الأمن وعموم الرضا"[2].

ويدعوه إلى التحلي بحميد السيرة، والتخلق بالخلال الطيبة، وتتريه النفس عن اللذات والمتاع، فيذكر: "وظهور الأمانة والصدق في كل غرض مقتضى، وحسن النية، وطهارة الطوية، ورعاية الإحسان، وإفاضة الرأفة في عالم الإنسان، وزيادة الكفاية بحسن الإمكان، واعلم أن من لا يضبط نفسه، وهي واحدة، [لا يضبط] أمر الكثير من الناس على تباين الأغراض، وتعدد الأجناس، فاربأ بنفسك عما تجره الشهوات من النقص، وازجرها عن كَلَف الحرص، وألن بجانبك لمن ظهر كماله، وقصرت به عنه حاله"[3].

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 342-343.

2)- المصدر نفسه، 2: 343.

3)- المصدر نفسه، 2: 343.

ويوصيه كذلك بالصبر عند الشدة والمصائب؛ إذ يقول: "واعلم بأن من ظهر حسن صبره على انتظام أمره، حسن صبره على شدائده في حوادث الدهر ومكائده، فالصبر قدر مشترك في من أخذَ وتَرك، والنفس لا تنفك من معترك"[1].

وينصحه أيضا باجتناب التراخي والكسل، فيقول: "واعلم أن الراحة عند الحاجة إلى الحركة تهدّي التعب الضروري لمن أخذه فيها وتركه، ولا تغفلن شيئا تقلدته، بعد ما حسبته من وظائفك وأعددته، فيظن بك من الخروج عن طبعك الذي جبلت عليه بمقدار ما خرج إليه"[2].

والتواضع خصلة حسنة دعاه إلى التحلي بها وخاصة عند التعامل مع العامة؛ إذ يقول: "ولا يعجبنك ما يظن من مساويك، ولتكن معرفتك بعيب نفسك، أوثق عندك من مدح أبناء جنسك، وانقض عن العامة، ومن يلابسها، وامتنع عن التكبر بمن يجانسها، ففي طباعها إهانة المتلبس بإشياعها، وتنقص من اتصل برعاعها"[3].

الركن الثاني: يتعلق بالوزير في علاقته بالملك وما ينبغي له في ذلك حيث يستهل حديثه في هذا الشأن بضرورة خدمة الحاكم بإخلاص وببذل الجهد، والقناعة والرضا؛ إذ يقول: "وإذا خدمت ملكا زاد رأيك على رأيه، وفضُل سعيُك في التدبير حُسْنَ سَعْيِه، فأَرِهِ الاستعانة بمد يدك، واقصر من إشراف

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 345.

2)- المصدر نفسه، 2: 345.

3)- المصدر نفسه، 2: 345.

جيدك، واظهر التعجب مما فضل عليك به، وسر من الحزم عل مذهبه، ولا تتبجح بتجاوز ما لأهل طبقتك، وإذ أنفقت عنده الكفاية، فاقصد في نفقتك، فإنه لا يحسن منه موقع قولك أو عملك، ويرى أن تعزّزك به أكثر من تحمّلك، فيشرع في كسرك، ويثيره إلى قسرك"[1].

كما يوجهه إلى أن يكون واسطة خير بين الحاكم والرعية، حيث عليه أن ينبه حاكمه إلى ضرورة تقديم النصح للرعية، والعفو عند المقدرة، وعليه أن يسعى دائما إلى الخير؛ إذ يقول: "واحذر الإضرار لديه بالناس في سبيل النصيحة، أو التوفير عليه كما توفر العامة على أنفسها الشحيحة، وابتغِ له قلوب الخلْق بمسامحتهم فيما قصروا فيه عن يسير الحق، فإنك تسترخص له بذلك تملك الأحرار، وتحسين الآثار، واترك لشؤونه الخاصة شؤونك، وحرك من أحسنت إليه على شكره دونك، ليقف على أن سعيك له أكثر من سعيك لنفسك، في يومك أو أمسك"[2].

ثمّ يدعوه إلى تقديم العون للحاكم ومساعدته مع الطّاعة، وخفض الجناح له؛ إذ يقول: "وإذا خصك بمشورته، وطلب رأيك لضرورته، فلا تخاطبه مخاطبة المرشد لمن استهداه، وأره حاجتك لما أبداه، وإذا اعترف بخطأ يواقعه في بعض أنظاره، أو أعلن يوما بسوء اختياره، فأجل فكرك في التماس عذره وتوجيه

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 345– 346.

2)- المصدر نفسه، 2: 346.

عاره، واحتل بفطنتك في رمّه، واحذر أن توافقه على ذمه، وذلل نيتك لكلامك، واصرف إلى ترك التجاوز جل اهتمامك، فالكلام إذا طابق نية المتكلم حرك نية السامع، وإذا صدر عن القلب، أخذ من القلب بالمجامع"[1].

ويقول أيضا: "واتق الكريهة دونه إن رهَب، واصرف لحظك عنه إن أكل أو شرب، وسدّ بينك وبينه باب العتاب بالمشافهة أو الكتاب، ولا تخف من طاعة الملك إلا ما وافق من طاعة ربّه"[2].

الركن الثالث: وهو مخصّص لتحذير الوزير: "من تقدم الملك عليه في الأمر الذي أسند إليه، وجعل زمامه في يديه"[3]: وقد تمحور الكلام في هذا الركن حول تحذير الوزير من الاستكثار من الضِّياع والعقار، والجمع الكثير للجواهر النفيسة والأحجار، وكذلك الاستكثار من الحشم والولد لأن ذلك مجلبة للحسد خاصة من قبل منافسيه، وتلهية عن الاشتغال بأمور الدولة، فيقول: "واحذر أن تسول لك قدرة الإمكان ودالّة السلطان، الزيادة في الاستكثار من الضياع والعقار، والجواهر النفيسة والأحجار، وغير ذلك من الاحتجان والاحتكار، وما تدعو إليه جلالة المحل ونباهة المقدار، فيتقسم فكرك وشغلك ويضيع سعيك وفضلك، ويحصيه عليك من يضمر لك الافتراس، ولا يمكنك من

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 346-347.

2)- المصدر نفسه، 2: 347.

3)- المصدر نفسه، 2: 347.

كيد الاحتراس، ممن حروم حظُّه، أو وُكس معناه أو لفظه، أو متطلع إلى أوفى من وِزَانِه، متسامٍ إلى ما وراء إمكانه"[(1)].

ويقول أيضا: "فاجتنب الانهماك في الاستكثار من الولد والحشم أولي العدد، والأذيال التي ثبتت في أقطار البلد، فإنّ الحاسد يراهم بذخا ونعمة، وإنما هم مؤونة ونقمة، وداعية إلى استهلاك عتاد، أو تدبير مستفاد، وإثارة حساد لهم، ورد جاهك، وعليك صدره ولهم نفع كدحك، وعليك ضرره"[(2)].

ونصحه بأن يجعل أكثر انشغاله في الدفاع عن مصالح الدولة، والذودِ عن حدودها والوقوف في وجه الأعداء، فقال: "ولتكن همتك مصروفة إلى استبراء حال المملكة واعتبارها، وتأمّل أفكارها، وما عليه كل جزء من أجزائها، من سداد ثغورها ودفاع أعدائها، ونقصان ارتفاعها، واختلال أوضاعها أو تدبير مصلحة يبقى لك ذكرها وخبرها، ويحسن بك أثرها، وخف مصارع الدالة، فهي أدوأُ دائك"[(3)].

ويعلمه أن التفكير في تحسين اقتصاد البلد وتطويره من التزامات الوزير، ودليل على شرفه ونبله؛ إذ يقول: "واعلم أن الاقتصاد مع إمكان التوسعة، والتترل مع الرتبة المرتفعة، ينبئ على قوة رأيك، وصحة عزمك، واستقامة سعيك"[(4)].

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، 2: 348.

2)- المصدر نفسه، 2: 348- 349.

3)- المصدر نفسه، 2: 349.

4)- المصدر ننفسه، 2: 349.

الركن الرابع: "في تصنيف أخلاق الملوك، للسير بمقتضاها والسلوك"[1]:

وقد دلّ في هذا الركن على بعض شيم الملوك التي يجب على الوزير أن يتحلى بها، مع اتباع أسلوب يوافق كل نوع من هذه الأخلاق؛ إذ يقول: "واعلم أن للملوك أخلاقا، يفطن الملاطف من خدامها إلى استعمالها، فيجعله أسا للسياسة وأحكامها، وهي أن الملك لا يخلو أن يكون سخيا وباذلا، أو ممسكا باخلا، وقويا على تدبيره أو ضعيفا، يلقى المقادة إلى وزيره أو سياظنّه أو من الاسترسال فيه أو حسن البشر عند الافتراض، أو منقبضا عن الأعراض، وإذا تركبت هذه الخلال تركيبا طبيعيا، وترتّبت ترتيبا وضعيا، وتقابل امتزاجها، بلغ إلى ستة عشر ازدواجها، وتأتى للحكيم من الوزراء علاجها، وربما انحرفت هذه الخلق أو توسطت، أو ربما أفرطت، وعلى هذا الترتيب ارتبطت"[2].

الركن الخامس: "في سيرته مع من يتطلع لهضبته ويحسده على رتبته"[3]:

واشتمل هذا الركن على ذكر السبل التي يجب على الوزير أن ينتجعها في تعامله مع معاشريه، وخاصة ممن يطمحون إلى رتبته، أو يكنون له حقدا وحسدا خفيا، وذلك بأن يبادلهم الإحسان والمعروف، فيقول: "وناهض فضلك، ليس من الاضطرار أن يكون لمترلته أسبابا، ولا لطلبه أبوابا، والحق أن تجاهده الجماعة، وتقمع منها الطماعة في الزيادة في فضائلك الذاتية، [والتحرز في ملابسة الدنية] والمناصحة لمن خصك بالمزية ولا تكشف في المجادة وجها، ولا تبد فيه غيبة ولا

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 2: 349.

2)- المصدر نفسه، 2: 350.

3)- المصدر نفسه، 2: 350.

نجها، واكسر سوْرة حسدهم بإحسانك، وسوّغهم المعروف من وجهك ولسانك، واصطنع أضدادهم ممن ضلع عليهم ومثل لديهم، تحرس منهم غيبك، وتدافع عيبك، وتجلو ريبك من غير أن يحس منك لهذا الغرض بفاقة، ولا يشعر بإضاقة، فإنك تنشر معايبهم المطوية، وترميهم من أشكالهم بالبلية"[1].

الركن السادس: خاصّ بسياسة الخاصة والبطانة وذوي الدّالة والمكانة:
لقد خصّ الوزيرَ في هذا المقطع الوصائي بمجموعة من النصائح تضمن له التعايش الجيد مع أهل الحاكم وعشيرته ورجال دولته، وخاصته وحرمه، فأما فيما يخص الخاصة، فيقول: "واعلم أن، من الخاصة: مربض لشدائد الدولة ومهماتها، ومتسم من ألقاب الغنا بأكرم سماتها، فهو يرى لنفسه اليد واليوم والغد، وآخر متعلق في قرابة من الملك وحرمه، أو وكيد ميل وذمة، ولبست حظوظُهم من الملك على حسب قوة أسبابهم، ووزن ما في حسابهم، فإن أطعت فيهم الملك، ظلمت المملكة حقها، وإن عدلت خالفت موافقة الملك، وباينت طرقها، والصواب التمسك بالترتيب على الإطلاق، ووضع الناس من المملكة موضع الاستحقاق"[2].

أما فيما يتعلق بولد الملك، فدعاه إلى صيانته وحمايته، وجعله بمنزلة ولده؛ إذ يقول: "وعامل الملك في ولده بحفظ الغيب، والسلامة من الريب، واحفظ له

---
1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 2: 351.

2)- المصدر نفسه، 2: 352.

الرسم واستبقه، واجعل حقهم دون حقه. وإذا دعوت لهم فاشرط السعادة بخدمته وطاعته، واجعل رضاه من الولد رأس طاعته، واجعل رضاه من الولد رأس بضاعته، واحذر من إهمال هذا العرض وإضاعته، وإياك أن تفضل ولدك ولده، ولا عدتك عدده، ولا تناقشه في شيء قصده"[1].

كما وجهه إلى ضرورة معاملة حرم الملك معاملة الأخت، أو الابن البار لأمه، وغايته من هذا رسم حدود العلاقة بين حرم الحاكم والوزير التي يجب أن تكون مبنية على الاحترام والحشمة والحياء؛ إذ يقول: "وإذا انصرفت إليك من إحدى حرمه، رغبة، أو تأكدت في مهم قربة، أو بدرت إليك شفاعة أو توجهت في حاجة طاعة، فلا تسمع رسالتها، ولا تعتبر مقالتها، إلا من لسان إنسان موصوف عند الملك بإحسان، حال من يقنه بمكان، واحترز في محاورتها من فلتات اللسان وهفواته، وراجع خطابها مراجعة الأخ إلى أكرم إخواته، أو الابن الأبر أمهاته، ولا تصغ في مخاطبتها إلى خضوع كلام ورقّة، تحية وسلام، وانفر من ذلك نفرتك من السموم الوحيّة والمهالك الرّديّة"[2].

كما خصّه في الآخر بوصايا عامة ليهتدي بها، ومن ذلك قوله: "وإذا انصرفت إلى مترلتك، فاختَلِ بعمّالك وكتَّابك، وذوي الرأي والنَّصيحة من أصحابك، على إحكام حال الملك الذي ناطها بك، فإذا أمسيت، فاشغل طائفة من ليلك بمدارسة شيء من حُكم الدين، وأخبار الفضلاء المهتدين، واجلُ صدأ نفسك بالبراهين، ومجالسة العلماء والصالحين، واختم سعيك ببعض صحف

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 2: 353.

2)- المصدر نفسه، 2: 353.

النبيين، وأدعية المرسلين والمتألهين لتختم يومك بالطهارة والعفة، والحلم والرأفة، واعتدال الكفة، وليهون عليك النَّصب والوَصَب، والعمر المغتصب، إنك مهتد بهدى ربك الذي يرعاك، ويُنْجِح مسعاك، ويثيبك على ما إليه دعاك"[1].

وتجدر الإشارة ههنا إلى أن ابن الخطيب أول من طرق غـــرض المقامـــة السياسية التي بناها على غرض النصح والتوجيه السياسي، حيث سكب وصاياه السياسية على شكل مقامة، وكانت غايته من ذلك الإبداع والتجديد للتفـــوق على أهل المشرق.

غير أن هناك من أشار إلى استفادته من التراث اليوناني في تأليفه للمقامتين، فقد ذكر دوغلاس مورثون أن مقامة السياسة لابن الخطيب "هي صورة معدلة من قسم من كتاب في السياسة منحول إلى أفلاطون، ترجمه في القرن الرابع الهجري أحمد بن يوسف بن الداية، كتاب ابن طولون (430-951) بعنوان "كتاب السياسة لأفلاطون" أو كتاب "العهود اليونانية المستخرجة من كتاب السياسة لأفلاطون""[2].

وقد تحدث إحسان عباس عن تأثر ابن الخطيب بالعهود اليونانية في مقامته "الإشارة إلى أدب الوزارة" ولها ما يشابهها من العهود اليونانية، فيقول: "موضوع العهد الثاني ألصق بنفسه وتجربته، ولأنه عهد وزير إلى ولده، فهو

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 2: 354.

2)- مجلة الفكر العربي، وداد القاضي: 3. عن: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص، محمد مسعود جبران، 2: 364.

يعكس دور ابن الخطيب نفسه في الحياة السياسية، ولهذا زاده السجع كما زادته الرغبة في الموضوع طولا..."[1].

والحقيق بالذكر ههنا، أن استفادة ابن الخطيب من التراث اليونـــاني في تأليفه للمقامتين لم تمنعه من الاعتراف من الآداب العربية والإسلامية.

أ-3- [illegible] الالتزام بالشرع وتدبير شؤون السّياسة:

إن السياسة والدين متلازمان، ولهذا وجب على المسؤول مهما كانت مترلته حاكما، أو وزيرا، أو قاضيا، أو واليا... الالتزام بالواجبات الدينية، وتطبيق فروض الشرع وأحكام الشريعة حتى يسود العدل ويعم الأمن والرخاء وتكفل حقوق الرعية وتصان، ومن ذلك رسالة كتبها ابن الخطيب على لسان سلطانه -الغني بالله- إلى الولاّة يوصيهم فيها بتقوى الله واتباع طريق الحق وبث العدل ليكونوا على الصّورة التي كان عليها الخلفاء الرّاشدون، يمثّلون القدوة الحسنة للرعيّة لتهتدي على خطاهم، ليصان الدّين وتحافظ الدّولة على أركانها ومبادئها لتبقى ثابتة وصامدة في مواجهة كلّ الأخطار الّتي تهدّدها داخليا أو خارجيا، فيقول: "ومن المنقول عن الملل والمشهور في الأواخر والأول أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقعت فيهم المثلات والنقمات وشحت السماء، وغيض الماء واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفت الضروع، وأخلفت الرضوع، فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة، والذكرى التي توقظ من السِّنة ونقرع

1)- ملامح يونانية في الأدب العربي، إحسان عباس: 175.

آذانكم بقوارع الألسنة، فأقرعوا الشيطان بوعيها، وتقربوا إلى الله تعالى برعيها، الصلاة الصلاة فلا تهملوها، ووظائفها المعروفة فكملوها، فهي الركن الوثيق، والعلم الماثل على جادة الطريق... والزكاة أختها المنسوبة ولدتها المكتوبة، المحسوبة... وارعوا حقوق الجار، وخذوا على أيدي الدعرة والفجار، وأخرجوا الشنان من الصدور، واجعلوا صلة الأرحام من عزم الأمور، وصونوا عن الاغتياب أفواهكم ولا تعودوا السفاهة شفاهكم... فاحذروا معاطب هذا الدّاء ودسائس هؤلاء الأعداء، وأهمّ ما صرفتم إليه الوجوه، واستدفعتم به المكروه، العمل على ما في الآية المتلوّة، والحكمة السّافلة المجلوّة من ارتباط الخيل، وإعداد العدّة. فمن كان ذا سعة في رزقه فليقُم لله بما استطاع من حقّه، وليتّخذ فرسا يعلم محلّته بصهيله، ويقتني أجره من أجر الله وفي سبيله"[1].

وهكذا، فقد كان لابن الخطيب تأثير قويّ في بناء دولة بني نصر على القواعد المنهجية والأسس الصّحيحة التي تبنى على تطبيق الشّرع وتنفيذ أحكامه.

ب- الوصايا المتعلقة بالزجر والدعو:

اشتملت تآليف لسان الدين بن الخطيب على نصوص وصائية زاخرة خصها غرض الزجر والوعظ، تطرق خلالها إلى الدعوة إلى الابتعاد عن مفاتن الدنيا الخادعة الفانية، والتذكير بالموت واليوم الآخر، وشق الطريق الصحيح نحو الجنة وذلك بمخالفة النفس لأهوائها وأطماعها المختلفة، وضرورة إخضاعها لاتباع الطريق القويم، ومعرفة إلهها حق المعرفة.

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدّين بن الخطيب، 2: 44-46.

ولعله استمد العديد من وصاياه الزجرية من عمق التجربة الصوفية التي عاشها بعدما أثقلت السياسة كاهله وأتعبته شؤونها وتقلباتها، إضافة إلى كيد خصومه وحساده وترصد الأعداء له من كل جهة، وظروف أخرى ألمت به، وكذلك تأثير طبيعة الوسط الّذي نشأ فيه الّذي تميّز بالوقار والعفّة وصلاح العقيدة[1].

فلا غرو أنه وجد في مدينة سلا بعدما وفد إليها منفيا سنة 761هـ مرتعا للراحة والطمأنينة، خاصة وأن الدولة المرينية وفرت له ظروف الإقامة الجيدة بهذه المدينة المغربية التي عبر من خلالها إلى عالم الذوق والعرفان عن طريق التصوف والزهادة وذلك بالانقطاع للعبادة وكثرة الذكر... ولعل من آثار ذلك، تردد لسان الدين على المقابر التي تضم السلاطين والمجاهدين والأولياء الصالحين لاستخلاص العبر والموعظة، والاستماع إلى شيوخ الزوايا والفقهاء[2]، فضلا عن رغبته المتكررة في زيارة بيت الله الحرام...[3].

حيث إنه كثيرا ما "تدفع الأزمات والحروب طوائف من الناس نحو الحياة الصوفية التي يجدون في ربوعها طمأنينة تغمرهم بزلالها المنعش فتعود الأرواح بعد خلاصها من جلبة العالم و ضوضائه إلى سكينتها الفطرية التي تتفتح في بحبوحتها

1)- ينظر؛ الفلسفة والأخلاق عند لسان الدين بن الخطيب: عبد العزيز بن عبد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط2، 1403هـ– 1983: 34-35.

2)- ينظر؛ ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، لسان الدين بن الخطيب: 61.

3)- ينظر؛ فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية، محمد مسعود جبران، 1: 354.

آفاق علوية خلابة، وقد تستتب هذه النجوة العابرة وتتطاول، فتنتقل من حالها الخاطف إلى مرحلة قارة لا تلبث أن تصير مقاما من المقامات الصوفية المرموقة"[1].

ذلك أن طبيعة النفس البشرية تكون في حاجة ماسة إلى التقرب من خالقها وقت الشدة والألم والأزمات والاضطرابات النفسية لتستكين النفوس القلقة وتهدأ وتمد بالانشراح الوجداني، طلبا للتخلص من صروف الدهر وبحثا عن سبل السعادة الأخروية، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[2]، وقال الشاعر أيضا:

ذِكرُ الإلَهِ ذَخِيرَة الأَنْفَاسِ ومَطِيبُ الخَطَرَاتِ والأَنْفَاسِ[3]

وكان الخطاب في هذه الوصايا تارة عاما موجها إلى عامة الناس، وتارة أخرى كان مخصوصا كتلك الوصايا التي أتت على شكل رسائل خاطب بها ابن مرزوق وأبا سعيد، وكذلك شيخ الدولة الإبراهمية، وكانت هذه الوصايا أشبه بالوصايا الإخوانية وذلك لطبيعة العلاقة المبنية على الصداقة والمودة بين الموصي ومتلقيه.

ومد الصديق بالنصح والإرشاد من بين العوامل القوية التي تعزز جسور المحبة والتواصل بين الأصدقاء والإخوة وهي واجبة؛ إذ يتحدث ابن الخطيب عن

---

1)- الفلسفة والأخلاق عند لسان الدين بن الخطيب، عبد العزيز بن عبد الله: 36.

2)- سورة الرعد، الآية: 128.

3)- الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين: نور الهدى الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 2008: 170.

ذلك لصديقه شيخ الدولة الإبراهمية، فيقول: "سيدي وعمادي، كشف قناع النصيحة من وظائف صديق، أو خديم لصيق، وأني بكلا الجهتين حقيق، ويتلجلج إلى صدري كلام أنا إلى نفثه ذو احتياج، ولو في سبيل هياج، وخرق سياج، وخوض دياج، وقد أصبحت سعادتي عن أصل سعادتك فرعا، يوجب النصح طبعا وشرعا"[1].

وقد اكتسى بعض هذه الوصايا طابع العفوية تميزت بالإيجاز والاختصار، وأما بعضها فقد كان ثمرة جهود فكرية مضنية ولكنها مثمرة في آن واحد، استثمر فيها ابن الخطيب جل طاقاته الفكرية ومعظم تحصيله العلمي والثقافي واللغوي -تحدوه بذلك رغبة جامحة نحو الحداثة والتجديد- إضافة إلى ما فاضت عليه خلجات نفسه واستكان في قلبه من فيض التجربة الروحية[2].

كما أنه دعم أقواله ومعارفه بشواهد نصية مختلفة منها الشرعية كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وأخرى حكمية كأقوال الصحابة والتابعين، وأقوال الحكماء من مسلمين وغيرهم عن يونانيين وهنود... وأخرى تاريخية كالتطرق لأخبار الدول السابقة وملوكها وبيان زوالها وزوال ملكها من أجل العظة والاعتبار، كان غرضه من ذلك التأثير في المتلقي ليقتنع وينتفع بوصاياه للعمل بها، ولعل من أسباب سلوكه هذا الاتجاه هو تردده على الشيوخ والزوايا

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 2: 121.

2)- ينظر؛ روضة التعريف بالحبّ الشّريف: الوزير لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر العربي، (د.ط)، (د.ت): 31. ومنهج هذا الكتاب غريب في بابه، فهو منهج لم يتّفق لمؤلّف قبله، وهو يعتبر بحقّ خطوة في سبيل التّجديد الصوفي لم يسبق إليها. المصدر نفسه: 29.

ذلك أن غاية الشيخ في نصح مريديه، الأخذ بالمنهج والعمل بالطريقة للوصول إلى الحقيقة.

ب- 1- البذكير بلاموت:

الموت هو الكأس الذي يشرب منه الميسور والمعدوم، وهو المصير المحتوم لأي بشر مخلوق لأجل غير معلوم لا يعلم ميقاته إلا الله تعالى، وهو ملاقي الإنسان لا محالة وقد يأتي بغتة.

لهذا ذهب ابن الخطيب إلى تنبيه الغافلين وتذكير الشاردين بحقيقته لأنه وعد على كل مؤمن ووعد الله حق؛ إذ يقول: "اعلموا يرحمكم الله أن الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها من الأقوال والأحوال، ومن الجماد والحيوان، وألسنة الملوان، فإن الحق نور لا يضره أن يصدر من الخامل، ولا يقتصر بمحموله اقتصار الحامل، وأنكم في أطوار سفر لا يستقر لها دون الغاية رحله، ولا تتأتى معها إقامة ولا مهلة، من الأصلاب إلى الأرحام إلى الوجود، إلى القبور، إلى النشور إلى إحدى داريّ البقاء أفي الله شك؟"[1].

ويقول أيضا:

أَلاَ أُذُنٌ تُصْغِي إِلى سَمِيعَة   أُحَدِّثُهَا بِالصِّدْقِ مَا صَنَعَ المَوْتُ

مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فأوَاه حَسْرَة   عَلَى مَا بَدَا مِنْكُم فَلَم يُسمَعِ الصَّوْتُ

هُوَ الغُرَرُ الآتي عَلى كُلِّ أمّةٍ   فَتُوبُوا سِرَاعا قَبْل أَن يَقَعَ الفَوْتُ[2]

---

1)- روضة التعريف بالحب الشريف، لسان الدين بن الخطيب: 153.

2)- المصدر نفسه: 156.

ويقول أيضا:

مَا فَوقَ وَجْه الأَرْض نفْسٌ حَيَّــةٌ إلا قَد انقَــضَّ عَليهَــا أَجَــلُ

لَوْ أَنَّهُم مِن غَيْرِها قَــد كُوِّنُــوا لامْتِلاَءِ السَّهْل بِهِــم والجَبَــلُ

مَا تَــمّ إلاَّ لُقَــمٌ قَــد هُيِّئَــت لِلْمَوْتِ وهو الآكِلُ المُسْــتَعْجِلُ

والوَعْدُ حقٌّ والوَرَى فِي غَفْلَــةٍ قَد خُدِعُوا بِعَاجِلٍ وَضُــلِّلُوا[1]

ب- 2- البذكير بالحساب والعقاب:

الموت هو انتقال من حياة فانية إلى حياة باقية، وهو نهاية لذلك الامتحان العسير الذي يحى من أجله الإنسان المتمثل في إخلاص العبــادة لله وحــده لا شريك له وطاعته، فمن أحسن الطاعة فله حسن الجزاء ومن ضلّ الســبيل إلى ذلك فله شر الجزاء.

وعليه ترى ابن الخطيب ينظر إلى الموت نظرة فلسفية عميقة فهو يقرن رهبته برهبة الحساب والعقاب، فيقول: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم، ما بعد المقيل إلا الرحيل، وما بعد الرحيل إلا المترل الكريم أو المترل الوبيل، وإنكم تستقبلون أهوالا، سكرات الموت"[2].

كما يذكرهم بأن الله هو صاحب الأجر والجزاء العظيم يوم البعث والنشر تبعا لما يقدمه الإنسان في حياته، فيذكّر: "قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[3]، أفلا أعددتم

1)- روضة التعريف بالحب الشريف، لسان الدين بن الخطيب: 158-159.

2)- المصدر نفسه: 153.

3)- سورة فاطر، الآية: 50

لهذه الورطة حيلة، أو أظهرتم للاهتمام بها مخيلة، أتعويلا على عفوه مع المقاطعة وهو القائل: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1]، وهو القائل، أأمنا من مكره مع المنابذة، ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[2]، أطمعا في رحمته مع المخالفة، وهو يقول: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[3]، أو مشاقّة ومعاندة ﴿وَمَن يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[4]، أشكا فيه، فتعالوا نعيد الحساب، ونقرر العقد، ونتصف بدعوة الإسلام أو غيرها من اليوم، تفقّدوا عقد العقائد عند التساهل بالوعيد، والعامي يدهن الأصبع الوحيد، والعارف يضمر بها مبدأ العصب.

هَكَذَا هَكَــذَا يَكُــونُ التَعَــامِي   هَكَذَا هَكَذَا يَكُــونُ الغُــرُورُ

وقال تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[5]"[6]، قال لسان الدّين:

وَلَوْ كَان هَوْل المَوْت لا شيء بَعْدَه   لَهَانَ عَلَيْنَا الأَمر واحتُقِر الهَــوْل

ولَكِنَّــهُ حشْــرٌ ونَشْــرٌ وَجَنَّــةٌ   ونَارٌ وَمَالاَ يَسْتَقل بِهِ القَــوْلُ[7]

1)- سورة إبراهيم، الآية: 07.

2)- سورة الأعراف، الآية: 99.

3)- سورة الأعراف، الآية: 156.

4)- سورة الحشر، الآية: 4.

5)- سورة يس، الآية: 30.

6)- روضة التعريف بالحب الشريف، لسان الدين بن الخطيب: 154-155.

7)- روضة التعريف بالحب الشريف، لسان الدين بن الخطيب: 161-162.

ب- 3- زتلاهيد في التكالب على المناصب السامة فيي الدولة:

على الرغم مما جناه لسان الدين من مكتسبات مادية من خلال تقلـــده أرقى المناصب في الدّولة، فإن مكابدته المشقة والعناء من جراء خدمة السلاطين والملوك، ومعايشته طور الزهادة والتعبد أبان له أن راحة الإنسان الحقيقية ليست في عيشه داخل القصور الفخمة واقتنائه الآنية الرفيعة واكتسائه الثياب الأنيقة... وإنما في التقرب إلى الله والزهادة في العيش وملازمة أهل الخير...

فلم يتوان ابن الخطيب في نقل هذه التجربة إلى صديقه ابن مرزوق ليستفيد منها، كونه عانى ويلات السياسة وذاق مرارتها، عن طريق تقديم الإرشادات والمواعظ إليه، فأراد أن تكون نصائحه تعبيرا صادقا عما حز في نفسه وما ضاق به صدره واختلج بداخله، وقد بنى كلامه على لغة العقل والمنطق، فقال: "وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله في عالم الإنسان، والآلة لبث العدل والإحسان، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان فأقول: ليت شعري ما الذي غبطك سيدي بالدنيا، وإن بلغ من زبرجها الرتبة العليا، وأفرض المثال بجلال إقبالها، ووصل حبالها، وخشوع جبالها، وضراعة سبالها، المتوقع المكروه صباح مساء، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعم البأسا، ولزوم المنافسة التي تعادي الأشراف والرؤسا. لترتب العدل حتى على التقصير في الكتب، وضغينة جار الجنب، وولوع الصديق بإحصاء الذنب، ألنسبة وقايع الدولة إليك، وأنت منها عرِيٌّ إلا بشهدانك للمضمار التي تنتجها غيرة الفروج، والأحقاد التي تضْطبِنها ركبة السروج، وسرحة المروج، ونجوم السما ذات البروج. ألتقليدك

التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك، وصحت إليه فاقتك، من حاجة لا يقتضي قضاها الوجود، ولا يكفيها الركوع للملك والسجود. إلقطع الزمان بين سلطان يعبد، وأفكار للغيوب تكبد، وعجاجة سر تلبد، وأقبوحة تخلد، وتؤيد، والوزير يصانع ويداري، وذو حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان ويمارى، وعورة لا توارى. ألمباكرة كل عايب حاسد، وعدو مستأسد، وسوق للإنصاف والشفقة كاسد، وحال فاسد، أللوفود تتزاحم بسدتك، مكلفة لك غير ما في طوقك، فإن لم يقع الإسعاف، قلبت عليك السماء من فوقك"[1].

ومما أوصى به ابن الخطيب صديقه ابن مرزوق ملازمة أهل الخير، ذلك أن ملازمة ابن الخطيب واحتكاكه بكثير من الأصدقاء ومعاشرته صنوفا من الناس بينت له مدى اختلاف الناس في طبائعهم ونياتهم، فلسان الدين يحذر من مصاحبة الأصدقاء الذين يغلب عليهم طابع المكر والحيلة والابتزاز لقضاء حاجاتهم، فهم يظهرون لك الود وقت يعزك الزمان، ويديرون لك ظهرهم حين يدير لك الدهر وجهه، فيقول: "فليت شعري أي شيء زادها، أو معنى أفادها، إلا مباكرة وجه الحاسد، وذي القلب الفاسد، ومواجهة العدو المستأسد، أو شعرت ببعض الإيناس في الركوب بين الناس، هل التذت إلا بحلم كاذب، أو جذبها غير الغرور مجاذب. إنما راكبك من يحدق إلى الحلية والبزة، ويستطل مدة العزة، ويرتاب إذا تحدثت بخبرك، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك، ويمنعك

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 2: 430- 431.

من مسايرة أنيسك، ويحتال على فراغ كيسك، ويضمرالشر لك ولرئيسك. وأي راحة لمن لا يباشر قصده، ويسير متى شا وحده"[1].

كما يبين له أسلوب الحياة الجديدة المبنية على الزهد الّذي نهجه، وذلك بتطليق الدنيا والابتعاد عن بهرجها وزخرفها، لعله يهتدي بها ويحيى على منهجها ليسعد في دنياه وآخرته، فيقول: "وقد فررت من الدنيا كما يفر من الأسد، وحاولت قطع المداخلة حتى بين روحي والجسد، وغسل الله قلبي وله الحمد من الطمع والحسد، فلم أبق عادة إلا قطعتها، ولا جنة للصبر إلا ادرعتها، أما اللباس فالصوف، وأما الزهد فيما بأيدي الناس فمعروف، وأما المال العبيط فعلى الصدقة مصروف، ووالله لو علمت أن حالي هذه تتصل، وعراها لا تنفصل، وترتيب هذا يدوم، ولا يجيرني الوعد المحتوم والوقت المعلوم، لمت أسفا، وحسبي الله وكفا"[2].

ب-4- الحث على التقرب إلى الله بصالح الأعمال والطاعات:

إن الدعوة إلى طاعة الله وتقواه باب من أبواب النصيحة، ومنفذ من منافذ الفرج والسعادة؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا، وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[3]، خاصة إذا كان المتلقي بحاجة إليها. قد ينطبق هذا القول ههنا على أبي سعيد الذي خصه ابن الخطيب

---

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 2: 432.

2)- المصدر نفسه، 2: 434-435.

3)- سورة الطلاق، الآيتان: 2-3.

بوصية زجرية بناها على أسلوب التقريع والتوبيخ، ولعل سبب كتابة هذه الوصية هو براءة أبي سعيد من تهمة كانت قد وجهت إليه، إذ يظهر أن أبا سعيد قد أخطأ التفسير والتقدير في فهم المنقول وجانب الصواب في مقاصد الشريعة وربما صدرت عنه أقوال فاتهم بها فامتحن[1].

وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك في الوصية إلى ما يسمى بالعوائد، لهذا دعا صديقه إلى مراجعة نفسه، وذلك بانتهاج الطريق الصحيح في عبادة الله والمنهج القويم في اتباع الشرع من خلال أداء مختلف الطاعات والفروض، وكثرة الذكر والدعاء، والصبر والتوكل...؛ إذ يقول: "والعوايد تعالج مع بقاها وعمران نافقاتها، بأدوية شرعية تنير عبوسها: وتذهب بوسها، وتملس أديمها، وتونس عديمها، صعب عليكم استعمالها، وسهل لديكم إهمالها"[2].

ويقول أيضا: "أين الصدقات، إذا حدقت إلى الأكف الحدقات، أين زلف الليل. أين الزكاة المتوعد ممسكها بالويل، أين الجهاد وارتباط الخيل، أين الحج وركبانه، تتدافع تدافع السيل، أين تلاوة القرآن التي تطمئن بها القلوب، أين الخلق الذي لا يصح دونها المطلوب، أين الحظ المغلوب، أين الصبر والسكون، وانتظار الفرج ممن يقول للشيء كن فيكون، أين قيدها وتوكل، أظنه أشكل، أين الأنفة من الاشتهار، أين الأنس بالخلوة بياض النهار، عدل عن ذلك

---

1)- ينظر؛ فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية، محمد مسعود جبران، 2: 99-100.

2)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب، 2: 447.

كله إلى البخل على المساكين، والسلاطة على أهل الدكاكين، وهجر المورد المعين، والتعويل على الوصول إلى الله من خرجة ابن سبعين"[1].

ولتثبيت العقيدة وصيانة الإيمان على الإنسان العمل بمنهج السلف الصالح والسير على خطاهم، لهذا دعا ابن الخطيب صديقه إلى التحلي ببعض الصفات التي تميز بها الأسلاف والتشبه بأخلاقهم، ذلك أن التمثل بالعظام نجاح والاقتداء بهم فلاح، فيقول: "ما الذي رابكم، أنس الله اغترابكم، من سيرة السلف الذين تجروا وكسبوا وانتموا لغنى الأكف وانتسبوا، وتصدقوا ووهبوا، وجاهدوا وحجوا وما انحرفوا ولا لجوا، وبسيرة أعمالهم احتجوا، وسعوا والتمسوا، وأكلوا الطيب ولبسوا، وجوارحهم بميزان الشريعة، أرسلوا وحبسوا، وشهد لهم بالخلاص عقدهم الذي حفظوا ودرسوا، لم يزمعوا لغير الضرورة طلاقا، وأشفقوا من فراق أهلهم إشفاقا، ولا حلوا لحسن العهد نطاقا، ولا قتلوا أولادهم إملاقا، ولم يضرهم مع الاستقامة معاشهم، ولا قطع بهم عن الله أثاثهم ولا رياشهم، بل إلى فئة الحق حياشهم، وأنتم على الحقيقة، ومن لكم بذلك أوباشهم، فإن قلتم وسعوا ما ضاق عنه احتمالنا، ولم تستطعه أعمالنا، فهلا تفطنتم وتنبهتم، وتكفلتم هديهم وتشبهتهم"[2].

ب-5- الدعوة إلىالإعالإلإعوالاعنلاعقعماصي:

تعتبر التوبة أول مقامات الإحسان، وأول درجات الارتقاء في مدارج العرفان، لذا كان الله غفورا رحيما وسعت رحمته كل شيء، يبسط يده في الليل

1)- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب ، 2: 447-448.

2)- المصدر نفسه، 2: 449.

ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، لهذا دعا ابن الخطيب العبد إلى تحسين العلاقة مع خالقه وتمتينها بترك المعاصي والإقبال على الله والتبتل والعبادة بولوج باب التوبة؛ إذ يقول: "يا طرداء المخالفة إنكم مدركون، فاستبقوا باب التوبة، فإن رب تلك الدار يجير ولا يجار عليه، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما هداكم، يا طفيلية الهمة دسوا أنفسكم في زمر التائبين، وقد دعوا إلى دعوة الحبيب فإن لم يكن أكل، فلا أقل من طيب الوليمة. قال بعض العارفين، إذا عقد التائبون الصلح مع الله انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال، ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[1]، معاني هذا المجلس والحمد لله نسيم سحر، إذا انتشقه مخمور الغفلة أفاق بسعوط هذا الوعظ يتفض إن شاء الله ركمة البطالة"[2].

ب-6- أخذ العبر من دروس الحياة:

تمثل الحياة بأخبار أحيائها وأمواتها، بشرا كانوا أو دولا وممالك زائلة عصارة تجارب حياتية يتوجب الاستفادة منها، ونوائب الدهر مدرسة لابد من التعلم منها؛ إذ يقول ابن عاصم الغرناطي: "...فإنّ في حوادث الأيّام لأولي الأفهام اعتبارا، وفي طوارق اللّيالي، لأرباب الهمم العوالي اختبارا، وفي مجاري الأقدار للذّوات الشّريفة الأقدار استظهارا، وفي مجان الألطاف الدّانية القطاف المائسة الأعطاف، في روضها الجمّ النّطاف استبصارا..."[3]، وأول ما يجب أن

---

1)- سورة الزمر، الآية: 69.

2)- روضة التعريف بالحبّ الشريف، لسان الدين بن الخطيب، 159.

3)- جنّة الرّضا في التسليم لما قدّر الله وقضى، أبو يحيى بن عاصم الغرناطي، 1: 94.

يدركه الفرد هو زوال هذه الحياة الدنيا لهذا يجب على الإنسان أن يتزهد في حياته الدنيا، وأن يتجنب التهافت على حطامها والاهتمام بزخرفها وبهرجها من لذات وشهوات ورغبات... لأن مهمة الإنسان في هذه الحياة محددة، فعليه أن يسخر كل حواسه وجوارحه في سبيل ذلك بحب الإله والخضوع لطاعته، فيقول: "يا كلفا بما لا يدوم، يا مفتونا بغرور الموجود المعدوم، يا صريع جدار الأجل المهدوم، يا مشتغلا ببنيات الطريق، قد ظهر المناخ، وقرب القدوم، يا غريقا في بحار الأمل، ما عساك تقوم، يا ملك الطعام والشراب، ولمع السراب لابد أن تهجر المشروب، وتترك الطعام، دخل سارق الأجل بيت عمرك، فسلب النشاط، وأنت تنظر، وطوى البساط وأنت تكذب. واقتلع جواهر الجوارح وقد وقع بك البهت، و لم يبق إلا أن يجعل الوسادة على أنفك ويفعل:

لوخفَّفَ الوَجْدُ عنّي دعوتُ طالبَ ثَارِي

كلاّ إنّها كلمة هو قائلها كيف التّراخي، والموت مع الأنفاس يرتقب وينتظر، كيف الأمان وهادم اللذات لا يبقي ولا يذر، كيف الركون إلى الطمع الفاضح، وقد صح الخبر من فكر في كرب الخمار، فنغصت عنده لذة النبيذ من أحس بلغط الحرس فوق جداره لم يصغ بسمعه إلى نغمة العود، من تيقن نذل الغزلة هان عنده عز الولاية.

مَا قَام خَيْرك يَا زَمَان بِشَرّه أَوْلى لَنَا مَا قَلّ مِنْك ومَا كَفَى"[1]

---

1)- روضة التعريف بالحبّ الشريف، لسان الدين بن الخطيب: 156.

كما يجب على الإنسان أيضا أن يضحي بكل عزيز ونفيس، وتحمل الصعاب والمشقة، من أجل سعادة غايتها حب المحبوب وشهود الحق عن طريق الذوق، حيث يقول: "بحث الزهّاد والعبّاد والعارفون والأوتاد والأنبياء الّذين تهتدي به العباد عن سبب الشّقاء الّذي سعادة بعده، فلم يجدوا إلاّ البعد عن الله سببه حبّ الدّنيا...

هجرْتُ حَبَائِبي مِنْ أَجْلِ ليلَى فمالِي من بعدِ ليلَى حَبِيبُ
وماذَا أرْتَجِي من وَصْلِ لَيْلَى سَيُجْزَى بالقطيعةِ عنْ قَرِيبِ"[1]

وللبرهنة على فناء هذه الدنيا الخادعة، استدل ابن الخطيب على صحة ما قاله بدلائل قوية تمثلت في حديثه عن أخبار الدول والأمم السابقة وزوالها وذهاب ملوكها بما خلدوه وشيدوه من قصور وصروح... فيقال: "إخواني، صُمَّت الآذانُ والنداءُ جَهِيرُ، وكذب العيان والمشار إليه شهير، أين الملك، وأين الظهير، أين الخاصة وأين الجماهير، أين القبيل وأين العشير، أين كسرى وأين أزدشير، صدق الله الناعي، وكذب البشير وغشّ المستشار واتهم المشير، وسئل عن الكلف فأشار إلى التّراب المشير"[2].

وقد يجد الإنسان في زيارة المقابر خير دليل على خداع هذه الدنيا وفنائها، لهذا يوصي ابن الخطيب بالتردد على مدافن الآباء والأمهات للاستعبار والعظة، واستشعار قرب الموت من الإنسان في أي لحظة وقصر العمر وهذا حتى

---

1)- روضة التعريف بالحبّ الشريف، لسان الدين بن الخطيب: 158.

2)- المصدر نفسه: 160.

يستغل وقته القصير في صالح الأعمال والعبادات ليفوز بالجنة و يسعد في آخرته، فيقول:

خُذْ من حَيَاتِك للمــاتِ الآتِ — وبدَار مَــا دَامَ الزَّمــان مُــوَاتِي

لا تَغْترِرْ فهُوَ التُّــرَابُ بقِيعَــةٍ — قد خُودِعَ الماضِي بِــه والآتِــي

يَا مَن يُؤَمِّلُ واعِظًــا ومُــذكّرا — يومــا ليوقِظَــهُ مــن الغَفَــلاَتِ

هَلاَّ اعتَبرتَ وَيالَهَا مِنْ عِبْــرَةٍ — بمَــــدَافِنِ الآبــــاءِ والأُمَّــــاتِ

قِفْ بِالبَقِيعِ ونادِ في عَرَصَــاتِه — فلكَمْ بها مِــنْ خِــيرَةٍ ولِــدَاتِ

دَرَجُوا ولست بخَالِد من عدهم — مُتَميِّز عَــنْهُم بوَصْــفِ حَيَــاةِ

والله مَا استَهْلَلْتَ حيًّا صَــارِخًا — إلاّ وأنتَ تُعَــدُّ فِــي الأَمْــوَاتِ

لا فَوتَ عَن دَرْكِ الحِمَامِ لِهَارِبٍ — وَالنَّاسُ صَرَعَى مُعْــركِ الآفَــاتِ

كَيْفَ الحَيَاة لِــدَارِجٍ مُتَكَلِّــفٍ — سِنَةَ الكَــرَى بمَــدَافِنِ الحَيَّــاتِ

أَسَفًا عَلَيْنا مَعْشَرَ الأَمْــوَات لاَ — نَنْفَكُّ عَن شُغل بِهَــاكَ وَهَــاتِ

ويَغُرُّنا لَمْع السَّرَاب فَنَغْتَــدِي — فِي غَفْلَةٍ عَــن هَــادِمِ اللَّــذَّاتِ

والله مَا نصحَ امْرأً مــن غشَّــهُ — والحقُّ لَيْسَ بخَافِتِ المِشْــكَاةِ[1]

وفي موضع آخر، يوصي ابن الخطيب بالصّبر، فيقول:

وَاصْبِر عَلَى مضَضِ اللَّيَالِي إنّها — لَحَوامل سَيَلِدنَ كــلَّ عَجيــب

فَإِذَا جَعَلْتَ الصَّبْرَ مفْزع معضلٍ — عَاجَلْتَ عِلّتَــهُ بِطِــبّ طَبِيــبٍ

---

1)- روضة التعريف بالحبّ الشريف، لسان الدين بن الخطيب: 160-161.

فللصَّبْرِ أولى أن يَكُونَ رُجُوعُنَا إذا لَمْ نَكُن بالحُزْنِ نُرجِعُ فَائِتا[1]

ويدعو إلى القناعة فيقول:

فَاقْنَع بِمَا أَعْطاك رَبُّكَ واغْتَنِم مِنْه السُّرُور وخَل مَا لاَ يَنْفع[2]

ويدعو إلى حسن الظنّ بالله والتّفاؤل بالمستقبل، فيقول:

إِذَا كَانَ ماضٍ من زَمَانِك قَد مَضَى بِإِسَاءَة قَــد سَــرَّك المُسْــتَقْبَلُ

هَذا بذَاك فَشَــفِّعِ الثــانِي الَّــذِي أَرْضَاك فِيمــا جَنَــاك الأوَّل[3]

وقد نظم ابن الخطيب أبياتا استهلّ بها رسالة وجّهها إلى أبي علي عمــر ابن عبد الله -من وزراء بني مرين- يوصيه فيها بالاعتماد على الله والثقــة بــه والاتّجاه إليه في الشّدائد، كما أوصاه بشكر الله متمثّلا بشفقته علــى عبــاده ورحمته بخلقه، فيقول:

لاَ تَــرجُ إلا اللهَ فِــي شِــدَّة وَثِقْ بــهِ فَهُــو الَّــذِي أَيَّــدَكَ

حَاشَــاك أنْ تَرْجُــوَ إلاَّ الّــذِي فِي ظُلْمَة الأَحْشَاءِ قَدْ أَوْجَــدَكَ

واشــكُر بالرَّحمَــة فِــي خَلقِــه وَوَجْهَكَ أَبسط بالرِّضا وَأَيَّــدَكَ

والله لا تُهْمِــــل أَلْطَافَــــهُ قِــلاَدَة الحَــقِّ الَّــذِي قَلَّــدَك

مَا أَسْعَد المُلْــكَ الّــذِي سُسْــتَهُ يَا عُمَرَ العَدْلِ ومَا أَسْــعَدَكَ[4]

1)- الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، عبد العزيز بن عبد الله: 11.

2)- المرجع نفسه: 12.

3)- المرجع نفسه: 12.

4)- ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: لسان الدين بن الخطيب، 647.

إضافة:

وممّا صدر عن لسان الدّين بن الخطيب في باب الوصايا مخاطبا ابن زمرك قائلا:

يَا طَالِبًا مـــن جَـــارِهِ إسْـــكرفجًا   هَذَا يُخَبِّرُ أنَّ جُوعَـــكَ فَاجـــا
ويَدُلّ أَنّك قَـــد نَبَـــذتَ تَـــدَاوِيًا   ويَدُلُّ أَنَّك قَدْ تَركْتَ عِلاَجـــا
خفْ مِن غذَاءٍ غَيْر معْتَدل القِوَى   واحذَر طَعَامًا يُفْسِدُ الأَمشَاجَا[1]

وههنا جاءت هذه الوصيّة على شكل دعابة، ولكنّها صحيّة قدّمها ابن الخطيب لابن زمرك على شكل نصيحة تخصّ الحمية.

وهكذا، بيّنت هذه الوصايا مدى اتّساع الآفاق العلمية للسان الـــدّين، واطّلاعه وتضلّعه من مختلف العلوم والمعارف الّتي كانت سببا في ذيوع صـــيته وسطوع نجمه وبخاصّة في مجال السّياسة والاشتغال بها والتّأليف عنـــها، كمـــا أظهرت مدى صفاء عقيدة الرّجل وقوّة إيمانه، وتمسّكه بالكتاب والسنّة، وفهمه العميق للدّين، عكس ما وجّه إليه من الاتّهامات بالزّندقة وغيرها الّتي كانـــت سببا مباشرا في قتله، كما أبانت عن إبداعه وتجديده في تآليفه.

1)- الدّيوان، لسان الدين بن الخطيب: 217.



وصية

لسان الدين بن الخطيب لأولأده

-أنموذجا تطبيقيا-

لا غرو أن الوصيّة من حيث كونها غرضا أدبيّا فنّيا لها ما يميزهـا مـن الخصائص الأسلوبية واالفنية واللغوية والعاطفة الصادقة الناتجة عن إرادة الخـير للآخر، إضافة إلى قيمتها الحضارية التي تسعى من خلالها إلى إصـلاح الفـرد ليسهم في رقيّ مجتمعه وأمّته.

وقد اتّخذت وصيّة لسان الدّين بن الخطيب لأولاده أنموذجـا تطبيقيـا باعتبار الرّجل أديباً متميّزاً، يمتلك مهارات لغوية وأدبية عديدة، وكونـه أدّى دورًا مهمًّا في صناعة حضارة الأندلس وتاريخها الحافل.

1- مضمون الوصية:

أ- مناسبة الصية:

أنشأ ابن الخطيب وصيته لأبنائه، وهي تندرج ضمن الوصايا الأهلية التي من الراجح أنه ألفها قبل رحيله، أو فراره من الأندلس والتحاقه بالمغرب سنة (773هـ–1371م)[1]. وتسمى "وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده" وقد أثبتها المقري في كتابيه "نفح الطيب"[2] و"أزهار الرياض"[3]، وقد ظهرت "تحت تسمية مسجوعة لعلها من وضع ابن الخطيب نفسه الذي كان يحتفل بمثل هذا السجع في عناوين كتبه ورسائله، أو من أحد عارفي فضله ومتذوقي أدبه المتشربين روحه الأدبية، وهذه التسمية المسجوعة هي: "رتيمة[*] المودِّعِ وتعِلّة[**]

1)- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، لسان الدين بن الخطيب: 318-319.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 392.

3)- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: أحمد المقري، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، لجنـة التّـراث الإسلامي، المغرب، (د.ط)، 1980، 1: 320.

*)- رتيمة: خيط الذي يشد به الأصبع لتستذكر به الحاجة.

القلب المتصدِّع(***)"[1]، ولعل القصد من هذه التسمية هو معاناة ابن الخطيب في هذه الفترة التي عاش المرارة خلالها بعدما تمكن خصومه وأعداؤه من السعاية به لدى السلطان الغني بالله، ولهذا السبب قرر ترك الأندلس والجواز إلى العدوة الأخرى.

وخلال استعداده للذهاب إلى المغرب كتب وصيته لأولاده الثلاثة لتكون النبراس الذي يضيء طريقهم وينير عقولهم ويرشدهم إلى الجادة، ليسعدوا في الدنيا والآخرة لاحتوائها نصائح نافعة ومواعظ قيمة، وهو ما أشار إليه المقري بقوله: "هي وصية نافعة يحصل بها انتعاش لاشتمالها على ما لا بد منه في المعاد والمعاش"[2].

ب- معاني الوصية وأهم معالمها:

ب-1- افتتاح الوصية:

ابتدأ لسان الدين وصيته بحمد الله تعالى الحي الباقي الذي جعل الوصية واجبة على من يجب نصحهم وبخاصة من الآباء إلى الأبناء، فيقول: "الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، ملهم الهدى الذي تطمئن به القلوب، وموضح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب، لاسيما

**)- تعلة: ما يتعلل به.

***)- المتصدع: المكلوم، الموجع.

1)- فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية، محمد مسعود جبران، 2: 105.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 392.

للولي المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾[1]، وقال أيضا: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾[2]"[3].

وقد أتبع هذا التحميد بذكر سيد الخلق محمد ع المعصوم من الخطأ، الخالي من العيوب، والترضي على آله وصحبه، فقال: "والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرت على نوره جيوب الغيوب وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تصمه العيوب، والرضى على آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والاقتداء الموصل للمرغوب، والعز والأمن من اللغوب"[4].

ب-2- نعي صاحب الوصية نفسه:

نعى ابن الخطيب نفسه إلى أولاده في مستهل وصيته ليثير في نفوسهم كوامن الحزن على دنو أجل والدهم ويؤثر فيهم، فيزداد إقبالهم على الوصية وانتفاعهم بها، وهذا بعد أن أدرك ابن الخطيب الكبر وغاص في الحياة، وخاض فيها التجارب والمحن، وعاش أفراحها وأحزانها وندم على ما فاته من أعمال الخير، أيقن ضرورة نقل هذه التجارب لأبنائه الذين رعاهم وربّاهم، وذلك لغريزة جُبل عليها الآباء وهي إرادة الخير لأبنائهم عن طريق نصحهم ووعظهم

1)- سورة البقرة، الآية: 133.

2)- سورة البقرة، الآية: 132

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 392.

4)- المصدر نفسه، 7: 392.

ليعيشوا في سعادة وهناء، وهذا بعد الضراعة إلى الله عز وجل لتحقيق هذا المطلب الثمين، فيقول: "وبعد، فإني لما علاني المشيب بقمته، وقادني الكِبَر في رمته، وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلق بعيني سعيه، وأملت أن تتعدى إلي ثمرة استقامته وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك -وعسى أن لا يكون ذلك- على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يمن علي منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو ولي ذلك والهادي إلى خير المسالك:

اعلموا هداكم الله تعالى الذي -بأنواره تهتدي الضُّلاَّل، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرّأت من يمينها الشمال- أني مودعكم إن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا مما بدا، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادي الرحيل يسمع"[1].

ب-3- الإشادة بقيمة الوصية، وضرورة العمل بها:

لما شعر ابن الخطيب بدنو أجله، لم يجد أحسن من وصية يتركها لأولاده تضمن لهم العيش الهني وحسن العاقبة من بعده، حيث قال: "ولا أقل للحبيب

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 392-393.

المودّع من وصية محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة تعقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدي، وتوضح لكم من الشفقة والحنو قصدي، حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدي، فهي أربكم الذي لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رف عليكم سقفه، وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل السام من كل حدب قد نسل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء عسكر مجر، وغدا شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم من لم يتعظ به في أمر، وقال: بيدي لا بيد عمرو"[1].

وهو يحثهم على العمل بهذه الوصية، نوّه بأنها تحتوي عصارة تجارب رجل متميّز، طبعت شخصيته بثقافة واسعة، رأى ضرورة تلقينها لأولاده وأحفاده للإفادة منها والانتفاع بها، ولكل من يريد اتباع المنهج القويم في الحياة والنجاح في امتحان الدنيا للفوز بالآخرة، لأن الله خلق العباد ليعبدوه، ويتفاضلوا فيما بينهم بالعبادات وفضائل الأعمال والطاعات؛ إذ يقول: "فاقتنوها من وصيّة، ومرام في النصح قصيّة، وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا، وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملا، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا، ولا رضى الدنيا مترلا، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا ولتلقنوا تلقينا، وتعلموا علما يقينا، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش

1)- نفح الطيب، المقري ، 7:393-394.

التراب جنبي، ويسح انسكابي، وهرول عن المصلى ركابي، أحرص مني على سعادة إليكم تجلب، أو غاية كمال بسببكم ترتاد وتطلب، حتى لا يكون في الدين والدنيا أورف منكم ظلا، ولا أشرف محلا، ولا أغبط نهلا وعلا"[1].

ب-4- موضوعات الوصية:

لقد خصّ ابن الخطيب أولاده بوصايا متعلّقة بدينهم، وأخرى بدنياهم ليهنأوا في معاشهم ويسعدوا في معادهم:

الوصايا المتعلقة بالدين: تحدث ابن الخطيب في هذا الجزء من الوصية على وجوب التدين بالإسلام، والإيمان بالله، وجميع الرسل، والعمل بما جاء في رسالة محمد ع المقررة بالعقل والنقل، بالإضافة إلى الدعوة إلى الأخذ ببعض النصائح التي استمدها من حياة الزهد والتصوف.

الدعوة إلى التمسّك بدين الإسلام وصيانته: استهل لسان الدين ابن الخطيب وصاياه المتعلقة بالدّين بدعوة أبنائه إلى التدين بالإسلامي، فهو الهدف الأسمى الذي يحيى من أجله الإنسان المؤمن، وذلك بالمحافظة عليه ونشره، حيث إن هذا الدين أوجبه الله تعالى على عباده من خلال رسالة عظيمة أتى بها نبيه محمد ع، وأكد عليهم ذلك بتذكيرهم بوصية لقمان ووصية خليل الله إبراهيم عليهما السّلام، فيقول: "وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان، وتستلمحوا صبح نصحي فقد بان، وسأعيد عليكم وصية لقمان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 394.

بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ، وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ، وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ، يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ، يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ، وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ، وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾[1]، وأعيد وصية خليل الله وإسرائيله، حكم ما تضمنه تتريله ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[2]"[3].

كما يذكرهم أن هذا الدّين مقرر بالعقل والنقل، وأهم أساس يقوم عليه هو الإقرار بالوحدانية المطلقة لله عز وجل وعدم الشرك به، وقد جاءت هذه الدعوة إلى التدين مناسبة في هذا الظرف، خاصة ضد تلك الحملات التي كانت تدعو الناس إلى التنصّر في الأندلس، فقال: "والدين الذي ارتضاه واصطفاه، وأكمله ووفاه، وقرره مصطفاه، من قبل أن يتوفاه، إذا أعمل فيه انتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهما مقرر، ومستمد من عقل أو نقل محرر، والعقل متقدم،

1)- سورة لقمان، الآيات: 13- 19.

2)- سورة البقرة، الآية: 132.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 394.

وبناؤه مع رفض أخيه متهدم، فالله واحد أحد، فرد صمد،ليس له والد ولا ولد، تتره عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعلمون، الذي لا يسأل عن شيء وهم يسألون، الحي العليم المدبر القدير ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[1]"[2].

وكون ابن الخطيب قد قطع أشواطا من حياته في البحث في شتى الميادين وقد جعل المنطق والعقل من بين الركائز الأساسية الّتي يقوم عليها البحث، لم يتوان عن إشعار أبنائه وهو يدعوهم إلى التدين، أن هذه الدعوة كانت نتيجة تأمل وتفكير أملياه عليه حسه العقلي والفلسفي -إضافة إلى الثقافة الدينية التي كان متشبعا بها- وأن هذا الدين جاء ليرتقي بعقل الإنسان إلى درجات عالية من النضج والتعقل، والحفاظ على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها حتى لا تشوهها الآفات والانحرافات التي عرفتها الأندلس وقتئذ، فيقول: "واعلموا أني قطعت في البحث زماني، وجعلت النظر شاني، منذ براني الله تعالى وأنشاني، مع نبل يعترف به الشاني، وإدراك يسلمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط ورق، ولا مصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلف فطام، ولا مقتحم بحر طام، إلا وغايته التي يقصدها قد نظرتها الشريعة وسبقتها، وفرعت ثنيتها وارتقتها، فعليكم بالتزام جادتها السابلة، ومصاحبة رفقتها الكاملة، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن

1)- سورة الشورى، الآية: 11.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 394-395.

يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[1]، وقد علت شرائعه، وراع الشكوك رائعه"[2].

الإيمان بجميع الرسل والتصديق برسالة محمد ع: أوصى ابن الخطيب أبناءه بالإيمان بالرسل الذين بعثهم الله رحمة للعباد، ليحرروهم من العبودية والجهل مرفقين بالمعجزات التي لم تختف أنوارها لتكون بينة على صدق الرسالة، وكذلك ضرورة الإيمان بخاتم الأنبياء والرسل محمد ع حامل رسالة الإسلام التي أتت هدى للعالمين، لهذا وجب على العباد الإخلاص في الطاعة وارتقاب الساعة ليحاسبوا على أعمالهم، فمن آمن به وعمل برسالته فله خير الجزاء، ومن ترك ذلك فله شر الجزاء، فقال: "أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء، وتوجه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء، مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء، ثم ختم ديوانهم بنبي ملتنا المرعية الهمل، الشاهدة على الملل، فتلخصت الطاعة، وتعينت الإمرة المطاعة، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة، ثم إن الله تعالى قبضه إذ كان بشرا، وترك دينه يضم من الأمة نشرا، فمن تبعه لحق به، ومن تركه تورط عنه في منتشبه، وكانت نجاته على قدر سببه"[3].

---

1)- سورة آل عمران، الآية: 85.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 396.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 395.

ويحث ابن الخطيب مرة أخرى أبناءه على ضرورة الإيمان بالرسول ε، والعمل بكل ما جاء به وضرورة التجلة لصحبه الذين اختارهم لصحبته، وجعل محبة صحبه من توابع محبته ε، وضرورة تعظيم الأئمة من بعد الصحابة والابتعاد عن العصبية، فيقول: "وآمنو ا بكل ما جاء به مجملا أو مفصلا على حسبه، وأوجبوا التجلّة لصحبه الذين اختارهم الله تعالى لصحبته، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته، واشملوهم بالتوقير، وفضلوا منهم أولي الفضل الشهير، وتبرأوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع، ولا تع التشاجر بينهم أذن واع، فهو عنوان السداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة، وأئمتها الجلة، فهم صقلة نصولهم، وفروع ناشئة من أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم"[1].

<u>التحذير من الانغماس في مفاتن الدنيا وبريقها:</u> بعد أن استلذ لسان الدين بمتاع الحياة أيام شبابه، وأحس بنشوة الذوق والعرفان في غمار التجربة الصوفية التي أبانت له أن الحياة الدنيا متاع ولغو، حذر أولاده من الانجراف نحو مفاتنها، وترك الدين الأحق بمراعاته وتطبيق شتى فروضه، كما حض الآباء على تلقين هذه المبادئ وتركها راسخة في الأذهان، فيقول في هذا السياق: "فلا تستتزلكم الدنيا عن الدين، وابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الآبدين، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق

1)- المصدر نفسه، 7: 395-396.

الواعدين، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللهم قد بلغت فأنت خير الشاهدين"[1].

كما يحذر أبناءه من كل ما من شأنه أن يؤدي بهم إلى نار جهنم فيدعوهم إلى القناعة والابتعاد عن الغرور، والصبر والتفاؤل، فيقول: "فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود، وتستدعي شوه الوجوه ونضج الجلود، واستعيذوا برضى الله من سخطه، واربأوا بنفوسكم عن غمطه، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم، واقتنعوا منه بما تيسر، ولا تأسوا على ما فات وتعذر، فإنما هي دجنة ينسخها الصباح، وصفقة يتعاقبها الخسار والرباح، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها"[2].

القيام بمختلف الطاعات والعبادات: إن التحلي بدين الإسلام، معناه وجوب القيام بمختلف الطاعات والعبادات التي دعت الشريعة إلى تطبيقها ومنها:

- التمسك بكتاب الله: دعا ابن الخطيب أولاده إلى التمسك بكتاب الله تعالى بالحفظ والتلاوة، والتفكير والتدبر في آياته ومعانيه للعمل بما جاء فيه، حيث يقول: "وتمسكوا بكتاب الله حفظا وتلاوة، واجعلوا حمله على حمل

---

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 396.

2)- المصدر نفسه، 7: 396.

التكليف علاوة، وتفكروا في آياته ومعانيه، وامتثلوا أوامره ونواهيه ولا تتأولوه ولا تغلوا فيه"(1).

● تطبيق أركان الإسلام: بدأ ابن الخطيب حديثه عن أركان الإسلام بحث أبنائه على إقامة الصلاة التي هي عماد الدين، فذهب إلى ذكر فضائلها ليحببها إلى أبنائه؛ فهي تذكر العبد بوجود الله تعالى الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، كما تهذب سلوك الإنسان وخلقه لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وحافظة للعبد من كل سوء، فقال: "الله الله في الصلاة ذريعة التجلّة، وخاصة الملّة، وحاقنة الدم، وغنى المستأجر المستخدم، وأم العبادة، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر وإن عرض الشيطان عرضهما، ووطأ للنفس الأمارة سماءهما وأرضهما، والوسيلة إلى بلّ الجوانح ببرود الذكر، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضامنة حسن اللعشرة من الجار، وداعية للمسألة من الفجار، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا شانه طبع، والخير الذي كل ما سواه له تبع"(2)، وقد دل أولاده على بعض شروطها كالتحلي بالصبر على تأديتها وإقامتها في أوقاتها وتفضيلها على باقي الشواغل والأعمال مع إتباع الفرض بما تيسر من النوافل، فيقول: "فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة، فالخيرعادة، ولاتفضلوا عليها الأشغال البدنية، وتؤثروا على العلية الدنية، فإن أوقاتها المعينة بالانقلاب تنبس، والفلك بها من أجلكم لا يحبس، وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه

1)- نفح الطيب: المقري، 7: 397.

2)- المصدر نفسه، 7: 397.

الأصيل، والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حق من يموت من حق الذي لا يموت، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها، وأتبعوها النوافل ما أطمقتموها، فبالاتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقت الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح مع إضاعة رأس المال وذلك أحرى بإقامة الفرض وأدعى إلى مساعدة البعض البعض"[1].

كما حثّهم على الطهارة، باعتبارها من أسباب صحة العبادات، حيث ذكر شروطها؛ وذلك بأن يستوفي الماء جميع الأعضاء وأن تكون المياه نظيفة، مع ضرورة حضور النية في الطهارة وباقي العبادات لأن أساس الأعمال النيات، فيقول: "والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل، وشرط لمشروطها محصل، فاستوفوها، والأعضاء نظفوها، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها، والحجول والغرر فأطيلوها، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، والسيف برئاسه"[2].

ويذكر أبناءه كذلك بأن يضبطوا أوقاتهم بين العبادات والمعاملات، وأن لا يقصروا في أداء واجباتهم الدينية أنه إذا ما استهوتهم أمور الدنيا أهملوا الذكر والطاعات: "واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال، وكان في درج الرجولية ذا انتقال، واستقاض صدأه بصقال،

---

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 397-398.

2)- المصدر نفسه، 7: 398.

وإن تراخ قهقر الباع، وسرقته الطباع، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع"[1].

ويتبع حديثه عن الصلاة والطهارة بالحث على إيتاء الزكاة ومنحها لمستحقيها بنصابها وفي أوقاتها، فهي فرض واجب على الأغنياء ليتذكروا الفقراء ويشكروا الله على نعمه الكثيرة، وهي مفتاح الجنة وسبيل السعادة في الآخرة، فيقول: "والزكاة أختها الحبيبة، ولدتها القريبة، مفتاح السعادة بالعرض الزائل، وشكران المسؤول على الضد من درجة السائل، وحق الله تعالى في مال من أغناه، بمن أجهده في المعاش وعناه، من غير استحقاق ملأ يده وأخلى يد أخيه، ولا علة إلا القدر الذي يخفيه، ما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه. فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، في اختيار عرضها ونتاجها، واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشيطان كلما عذل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ولا تدرون أين تسلكون، فوهب وأقدر، وأورد بفضله وأصدر، ليرتب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نواله"[2].

ويؤكد أيضا على صيام رمضان، فيخبرهم أن الصيام ليس الإمساك عن الأكل والشرب فقط وإنما هو صيام الجوارح بالامتناع عن ارتكاب الفواحش ومختلف الآثام، كما يحثهم على القيام بالأعمال الفاضلة التي تلحق بالصيام من تهجد واعتكاف في المساجد، فيقول: "وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 398.

2)- المصدر نفسه، 7: 398-399.

زلفى، الممحوضة لمن يعلم السر وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد وإيثار التهجد على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية، ولواحقه الشرعية، فبذلك تحسن الوجوه، وتحصل من الرقة على ما ترجوه، وتذهب قسوة الطباع، ويمتد في ميدان الوسائل الباع"[1].

وأما عن الحج، فمن كانت له القدرة عليه من صحة ومال وجب عليه القيام به، وبين له أن جزاءه الجنة، فيقول: "والحج –مع الاستطاعة– الركن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما فرض عن ربه وسنَّه، وقال ليس له جزاء عند الله إلا الجنة"[2].

• الترغيب في الجهاد: كما يرغب ابن الخطيب في الجهاد لمن يقدر عليه بالمال والنفس، فهو يدفع أبناءه إليه،وهذا نتيجة للظروف السياسية والعسكرية التي كان يعيشها الأندلسيون خلال تلك الفترة من تاريخ بلادهم، فيقول: "ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممن يسمع نفيره ويطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه"[3].

ويؤكد مرة أخرى، على ضرورة الحفاظ على هذه القواعد التي بني عليها الإسلام، فهي تضمن للعبد سلامة العيش في الحياة الدنيا والفوز في الآخرة فلا يكون من الخاسرين قائلا: "هذه عمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 399.

2)- المصدر نفسه، 7: 399.

3)- المصدر نفسه، 7: 399.

وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناوئكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مبدلين ولا مغيرين، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين"[1].

الوصايا المتعلقة بالدنيا: لقد تطرق ابن الخطيب في هذه الوصايا إلى أهم الأسس التي تبنى عليها حياة الإنسان في مناحيها المختلفة،فقدم لهم توجيهات عديدة اجتماعية وأخلاقية واقتصادية وسياسية ليرقى سلوكهم في المجتمع ويعيشوا عيشة هنية، كالتزود بالعلم والتحلي بالأخلاق الحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

التوجيه نحو طلب العلم واكتساب المعرفة: تحدث ابن الخطيب عن العلم؛ فطلبه عبادة، وبفضله يتمكن الإنسان من معرفة أمور الدين والمعاد ويرقى في أداء العبادات، كما أن العلم هو النور الذي يضيء حياة الأمم ويسهم في رقيها، فأول آية قرآنية نزلت دعت إلى طلبه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾[2]، ولسان الدين بدوره يدعو أبناءه إلى اكتساب العلم والمعرفة، فيقول: "واعلموا أن بالعلم تستكمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلا بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللباب، والله عز وجل يقول: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[3]"[4].

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 399.

2)- سورة العلق، الآية: 1.

3)- سورة الزمر، الآية: 9.

4)- نفح الطيب، المقري، 7: 399.

ويواصل حديثه عن العلم إذ يرى أن طلبه مقرون بخشية الله تعالى والخوف منه، ثم يعدد فوائده وقيمته؛ فهو يعود على الفرد بالسعادة في الدنيا والآخرة، واكتساب قسط منه ولو كان يسيرا فهو نافع: "والعلم وسيلة النفوس الشريفة، إلى المطالب المنيفة، وشرطه الخشية لله تعالى والخفية، وخاصة الملأ الأعلى، وصفة الله في كتبه التي تتلى، والسبيل في الآخرة إلى السعادة، وفي الدنيا إلى التجلة عادة، والذخر الذي قليله ينفع، وكثيره يشفع، لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدو المناصب، ولا يبتزه الدهر إذا مال، ولا يستأثر به البحر إذا هال من لم ينله فهو ذليل، وإن كثرت آماله، وقليل، وإن جم ماله"(1).

كما يلح على ضرورة التزود بالعلم، فإن لم يتأت للكبار اكتسابه، فتعليم الأبناء واجب، وذلك بتوليد غريزة حبه لديهم وغرسها فيهم من خلال تحسيسهم بأهمية طلبه، فبفضله يرقى الإنسان في المجتمع ويسمو إلى المنازل الرفيعة، فيقول: "وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطى حسابكم، فالتمسوه لبنيكم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودرسه، واجعلوا طباعهم ثرى لغرسه، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه، وسهر يهجر له الجفن كراه، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تعزل، وتحلّوهم مثابة رفعة لا يحطّ فارعها ولا يستنزل، واختاروا من العلوم التي ينفقها الوقت، ما لا يناله في غيره المقت"(2).

---

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 399-400.

2)- المصدر نفسه، 7: 400.

أما خير العلوم عنده فهي علوم الشريعة بجميع فروعها، ولكنه يرتبها بدءا بتجويد كتاب الله تعالى وترتيله ومعرفة أحكامه، ثم حفظ الحديث الشريف، وبعدها تعلم علوم اللغة العربية، والغوص في أصول الفقه، والنظر في المسائل المنقولة عن العلماء، والتمعن فيها، وذلك في قوله: "وخير العلوم علوم الشريعة، وما نجم بمنابتها المريعة، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنما هي آلات لغير، وأسباب إلى خير منها وخير، فمن كان قابلا لازدياد، وألفى فهمه ذا انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنة، المهدي كنوز الكتاب والسنة، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة، والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة، وهذه هي الغاية القصوى في الملة"(1).

ثم يحذر من العلوم القديمة والمهجورة التي لا تعود على الإنسان بالنفع والفائدة، ويضرب مثلا بابن رشد الّذي عادت عليه بالضّرر والسخط، فيذكر: "وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا ورأيا ركيكا، ولا يثمر في العاجل إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصغار، وخمول الأقدار، والخسف من بعد الإبدار، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجدال، هذا ابن رشد قاضي المصر ومفتيه، وملتمس الرشد وموليه، عادت عليه بالسخطة

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 400.

الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورط في ازدحامها"[1]، ومع ذلك ليست كل العلوم ضارة، فهو يشيد بالنافع منها ويدعو إلى الاستفادة منها، فيقول: "ولا تخلطوا سامكم بحامها، إلا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحة، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور"[2].

التوجيه الخلقي: إن كانت العلوم ضرورية في بناء حياة الأمم والحفاظ على مجدها، فالأخلاق مثلها تضمن الأمن والاستقرار في المجتمع لأنها تضبط السلوك بين الأفراد داخله، ولهذا حث ابن الخطيب أبناءه على الأخذ بالقيم المثلى والمبادئ الرفيعة التي دعت إليها تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وهذا من خلال عرض جملة صريحة من الأوامر والنواهي، منها:

- الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: دعا أولاده إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك عن طريق تقديم الموعظة الحسنة والكلمة الطيّبة، لأن هذا الدين يقوم على النّصيحة ويدعو للتي هي أقوم، وأنه دين الاعتدال والوسطية، فيقول: "وامروا بالمعروف أمرا رفيقا وانهوا عن المنكر نهيا حريّا بالاعتدال حقيقا، واغبطوا من كان من سنة الغفلة مفيقا، واجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا تسلكوا منه طريقا"[3].

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 400-401.

2)- المصدر نفسه، 7: 401.

3)- المصدر نفسه، 7: 401.

● التحلي بالخلال الحسنة: دعا ابن الخطيب أولاده إلى التحلي بالصفات الحميدة والابتعاد عن الرذيلة، فحثهم على التزام الصدق وتجنب الكذب مبينا جزاء الكذاب، فيقول: "وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين، وأهم ما أضرى عليه الآباء البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومن أكثر من شيء عرف به، وإياكم والكذب فهو العورة التي لا توارى، والسوأة التي لا يرتاب في عارها ولا يتمارى، وأقل عقوبات الكذاب، بين يدي ما أعد الله له من العذاب، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحق نطق"[1].

كما أوصى بحفظ الأمانات وصيانتها وأدائها إلى أهلها، والابتعاد عن الغدر والخيانة: "وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفي وجه الديانة كُلُوم، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة، ولا توجدوا للغدر قبولا، ولا تقروا عليه طبعا مجبولا ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً﴾[2]"[3].

كما نهى أيضا عن الغش في الكيل والميزان، فقال:" ولا تبخسوا الناس أشياءهم بكيل أو وزن"[4].

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 401.

2)- سورة الإسراء، الآية: 34.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 401.

4)- المصدر نفسه، 7: 401.

كما حذّرهم من الظلم والغيبة، ودعاهم إلى ترك الحسد والبخل، لأن هذه الصفات الذميمة من أمراض القلوب التي يجب على المؤمن الابتعاد عنها حتى يصفو قلبه وتطهر نفسه ويستقيم سلوكه، فيقول: "وإياكم والظلم، فالظالم ممقوت بكل لسان، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان، "والظلم ظلمات يوم القيامة"[1]، كما ورد في الصحاح الحسان، والنميمة فساد وشتات، لا يبقى عليه متات، وفي الحديث "لا يدخل الجنة قتات"[2]. اطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود، والبخل فما رؤي البخيل وهو مودود"[3].

- الحفاظ على مقاصد الشريعة: طلب ابن الخطيب من أولاده الحفاظ على مقاصد الشريعة الإسلامية، وقد خصّ بالذّكر الضّروري منها، فحذّرهم من ارتكاب الفواحش والوقوع في الكبائر، ونهاهم عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ولو بالإشارة بالكلام، وذلك لأن حفظ النفس من مقاصد الشريعة الإسلامية، كما بين لهم أن جزاء القتل المتعمد جهنم والعذاب العسير، فيقول: "والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أن الإنسان في فسحة ممتدة، وسبل الله تعالى غير منسدة، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه، ويغمس في الحرام بيده أو لسانه، قال الله

---

1)- صحيح البخاري: الإمام البخاري، 2: 864،كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة/ نفح الطيب، 7: 402.

2)- الأدب المفرد: حديث صحيح، وصحّحه الألباني في المشكاة، 3: 482.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 403.

تعالى في كتابه الذي هدى به سنَنًا قويما، وجلى من الجهل والضلال ليلا بهيما ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1]"[2].

كما نهى أولاده عن الزنا باعتباره من الكبائر والفواحش التي تنبذها الشريعة حفاظا على العرض، وضمانا لصحة الأنساب والأنسال واجتنابا للأمراض والأوبئة، وليقيد سلوك الإنسان حتى لا يصبح رهينة لشهواته وغرائزه، وخاصة أن الحلال موجود وهو النكاح، فيقول: "واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه، لو لم تتلق نور الله الذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يزنى بأهله، والله قد أعد للزاني عذابا وبيلا، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾[3]"[4].

كما نصحهم باجتناب الخمر باعتبارها من الكبائر التي يحرمها الدين، حفاظا على العقل من جهة، وسلامة الأفراد والمجتمعات من جهة أخرى، فيقول: "والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، واللهو لم يجعله الله في الحياة شرطا والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوغ وأعطى، وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة

---

1)- سورة النساء، الآية: 93.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 401-402.

3)- سورة الإسراء، الآية: 32.

4)- نفح الطيب، المقري، 7: 402.

الأجساد، والله تعالى قد جعلها رجسا محرما على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السداد"[1].

ونهاهم أيضا عن أكل المال الحرام سواء كان ربا أو مالا لغير قائلا: "ولا تقرُبوا الرّبا فإنّها من مناهي الدّين، والله تعالى يقول: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[3]، في الكتاب المبين، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق يبيحه، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه"[4].

التوجيه الاجتماعي: نبه لسان الدين أولاده إلى التحلي بالصفات التي دعا إليها الدين، ومنها: الإحسان إلى الأقارب، وحسن التعامل بين الأفراد داخل المجتمع؛ بغية تمتين رابطة الأخوة بينهم، وضمان التكافل الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع الواحد؛ كإفشاء السلام، وإيتاء الصدقات، ورعاية حقوق الجار وصلة الأرحام...، فيقول: "وتفقدوا أنفسكم مع الساعات، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات، ورقوا على ذوي الزمانات والعاهات...، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا على أولي الأرحام، والوشائج البادية الالتحام"[5].

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 402.

2)- سورة البقرة، الآية: 278.

3)- سورة البقرة، الآية: 279.

4)- نفح الطيب، المقري، 7: 402.

5)- المصدر نفسه، 7: 403.

كما دعا أبناءه إلى مراعاة حق الأخوة فيما بينهم، وضرورة مساعدة بعضهم بعضا، وبخاصة إذا كان أحدهم ذا خصاصة؛ إذ يقول: "والله الله لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تذهبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كل منكم لأخيه، ما يشتد به تواخيه بما أمكنه من إخلاص وبرّ، ومراعاة في علانية وسر، وللإنسان مزية لا تجهل، وحق لا يهمل"[1].

ودعاهم أيضا إلى الاتحاد والتعاون فيما بينهم و الابتعاد عن التشاجر فيما بينهم في الأمور السخيفة، وحذرهم من كيد النساء، فيذكر: "وأظهروا التعاضد والتناصر، وصلوا التعاهد والتزاور، ترغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه، فإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمرا فاحقروه"[2].

ويحذرهم أيضا من التهاون بما ينبغي مراعاته في العلاقات الاجتماعية كمعاداة الرجال وإفشاء الأسرار... ودعاهم مرة أخرى، إلى صيانة الدين والحفاظ على الأمانة...؛ إذ يقول: "وليحذر معاداة الرجال، ومزلّات الإدلال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء السر، وسكر الاغترار، وليصن الديانة، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة، ويسر من رضى الله على أوضح الطرق، ومهما

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 404.

2)- المصدر نفسه، 7: 404.

اشتبه عليه أمران، قصد أقربهما إلى الحق، و ليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان، والزعازع تسالم اللدن اللطيف من الأغصان"[1].

التوجيه الاقتصادي: إنّ المال هو المحرّك الأساسيّ للاقتصاد في الحياة تتمّ به المعاملات وبعض العبادات، لذا وجّه لسان الدين أولاده إلى الطّريقة المثلى في كيفية الحصول على المال واستعماله، فأول التوجيهات التي أولاها اهتماما كبيرا حث أولاده على السعي نحو الكسب الحلال واجتناب كل ما هو حرام أو تشوب حوله الشبهات، فيقول: "والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه، ولا تلجأوا إلى المتشابه إلا عند عدمه، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع، والمحافظ عليه مغبوط"[2].

ويذكر أبناءه أن صاحب النعمة وذا الفضل الذي يرزق عباده في الدنيا والآخرة هو الله تعالى الذي وجب عليهم حمده وشكره على مختلف النعم والآلاء، فيقول: "وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يفيد به الشارد، ويعذب الوارد،... ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها، وتلفكم الجهالة بسكرها، وتتوهموا أن سعيكم جلبها، وجدكم حلبها، فالله خير الرازقين، والعاقبة للمتقين، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين"[3].

ثمّ هو يفيدهم من ثمرة تجربته الصوفية، فيحذّرهم من الإسراف في أموالهم، ومن مصاحبة أهل الدنيا الذين يهتمون ببهرجها وترفها وينسون

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 404-405.

2)- المصدر نفسه، 7: 402.

3)- المصدر نفسه، 7: 404.

عواقب المستقبل؛ إذ يقول:"وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في الطلب أولى، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها، ونفعها لا يقوم بضرها، وأعقاب من تقدم شاهدة، والتواريخ لهذه الدعوة حاضرة، ومن بُلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلل من المال"[1].

وكان بفضل بصيرته النافذة، ونظرته الثاقبة، وسبره لأغوار العدو يتوقّع المصير المحتوم الّذي ينتظر بلده، لذا نبه أولاده إلى اجتناب إنفاق المال في العقار والأراضي لأنه مجلبة للمصائب والنوائب وبخاصة في أندلس كانت على وشك نهايتها؛ إذ يقول: "ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعيا لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعوقا عن الانتقال، أمام النّوب الثّقال"[2].

التوجيه السياسي: وممّا دعا إليه ههنا:

- طاعة ولاة الأمر: فقد أوصى أولاده بطاعة ولاة أمورهم والخضوع والامتثال لأوامرهم ونواهيهم بما يرضي الله تعالى، كما طلب منهم تقديم النصح والإرشاد لأصحاب الأمر إن أخطأوا، وذلك تجنبا للفوضى أو الفتن التي قد تشوب البلاطات، وحفاظا على تلك العلاقة التي تربط الرعية بالمسؤول، وذلك ثمرة تعامله مع السلاطين والحكام، فيقول: "وأطيعوا أمر من ولاه الله تعالى من

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 404.

2)- المصدر نفسه، 7: 404.

أموركم أمرا، ولا تقربوا من الفتنة جمرا، ولا تداخلوا في الخلاف زيدا ولا عمرا"[1].

● الابتعاد عن السّياسة: يواصل ابن الخطيب دلالة أبنائه على عصارة خوضه معارك الحياة، وهذه المرة ما أملته عليه التجربة السياسية ومسألة الاشتغال بالمناصب السامية في الدولة ونتيجة انعكاساتها السلبية عليه، فقد نصح أولاده بعدم تكرار التجربة من خلال قوله :"ويأمن في الطريق التي اقتضت عثاري إن سلك -وعسى أن لا يكون ذلك- على آثاري"[2].

وإذا اقتضت الضرورة أولاده تولّي الوظائف السياسية اختيارا أو إكراها، فعليهم أن يعرفوا قدرها ويدركوا ما يترتب عنها من صعاب، لأنه قد حذرهم منها قائلا: "وإيّاكم وطلب الولايات رغبة واستجلابا، واستظهارا على الحظوظ وغلابا، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضيحة والعار، ومن امتحن بها منكم اختيارا، أو جبر عليها إكراها وإيثارا، فليتلق وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقع عزل، وإدالة بإزاء بيع جدّ من الدنيا بهزل، ومزلّة قدم، واستتباع ندم"[3].

---

1)- نفح الطيب: المقري، 7: 401.

2)- المصدر نفسه، 7: 393.

3)- المصدر نفسه، 7: 405.

ب- 5- اختتام الوصية:

قبل أن ينهي ابن الخطيب وصيته، طلب من أبنائه قبولها، وذكّرهم بضرورة الاقتداء بها لما اشتملت عليه من قيم ثمينة، وحكم مفيدة، وآراء سديدة، ومواعظ عديدة من رجل عظيم ومتميز، فيقول: "هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها، وتجارتي التي لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة؛ وبقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القيم، استكثرتم من بواعث الندم. ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أن تقوى الله فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب"[(1)].

ثمّ يختم ابن الخطيب وصيته ختاما مؤثّرا، وذلك بالدعاء لأبنائه بأن تعود عليهم هذه الوصية بالنفع، وأن يكون الله في عونهم بعده، لأن إطالة الإقامة في هذه الحياة أمر محال؛ إذ يقول: "كان الله خليفتي عليكم في كل حال، فالدنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء، دار البقاء جعلها الله من وراء خطة النجاة، ونفق بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة، والسلام عليكم من حبيبكم المودع، والله سبحانه يلأمه حيث شاء من شمل متصدع، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله تعالى وبركاته"[(2)].

---

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 405.

2)- المصدر نفسه، 7: 405.

اشتملت وصيّة لسان الدّين بن الخطيب لأولاده على معان كثيرة(*) لتكون لهم خير زاد ينتفعون به، بنوره يستضيؤون وعلى هديه يسيرون.

ج- قيمتاه الحضارية:

الأدب عامل فعال في خدمة الإنسان والحضارة، فهو يعدّ "مرتكزا قويا في بث القيم النبيلة وخلق العوالم السامية ودعم الحضارة الحقيقية المتأصلة"[1].

وبما أن الوصية نوع من الأدب وفن من فنونه، فهي حلقة وصل بين الأدب والحضارة كونها تسهم في بنائها ورقيّها، وذلك من خلال المبادئ والقيم التي يرسيها منشئ الوصية، والتي تهدف إلى إعداد العنصر الأساسي في بناء الحضارات وتقدّمها ألا وهو الإنسان، حيث يتمّ ذلك عن طريق تقويم سلوكه وضبط تصرفاته وتهذيب أخلاقه، وتكوينه، وإذكاء مواهبه، وتوجيهه نحو الأفضل والأحسن بجعله يستفيد من التجارب السابقة، وذلك لأن الوصية سجّل مليء بالخبرات الصّحيحة، والآراء والتصورات السّديدة التي اكتسبها الموصي في تفاعله مع الحياة وتعامله مع الأحياء.

---

*)- وبعد تتبّع مضمون وصيّة لسان الدّين بن الخطيب لأبنائه، يبدو لي تأثّره بوصية أبي الوليد الباجي الّتي وجّهها لولديه، وهذا من ناحية المعاني المطروقة الّتي تعرّض إليها، وقد ورد الحديث عن هذا التأثّر في مجلّة المعهد المصرية: "ما نشاهده في وصيّة الوزير لسان الدّين بن الخطيب (ت.776هـ) لأولاده من مشابهة كبيرة واتّحاد تامّ، فابن الخطيب قد ابتدأ وصيّته بما ابتدأ به الباجي وختم بما اختتم به الباجي وصيّته، واستعمل -تقريبا- الآيات نفسها والأحاديث نفسها التي استعملها الفقيه، وطرق نفس الموضوعات الّتي طرقها". نقلا عن: مجلّة المعهد المصري للدّراسات الإسلامية في مادريد، مقدّمة لوصيّة أبي الوليد الباجي لولديه: 23.

1)- الأدب والبناء الحضاري: حسن الأمراني، أدب الحضارة وحضارة الأدب: محمد خرماش، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانيةرقم 29، وجدة- المغرب، سلسلة بحوث ودراسات -8-1999: 18.

وقد حفلت وصية ابن الخطيب بهذه القيم التي قدمها لأبنائه على شكل أوامر ونواه ليفيدوا منها، من أجل إثبات ذاتيتهم الأندلسية وذلك بفرض كينونتهم، والدفاع عن كيانهم الإسلامي، والحفاظ على مجد حضارة راقية أسّسها أسلافهم والتي شملت جميع جوانب الحياة، بل الأكثر من هذا دعوتهم إلى البذل والعطاء عن طريق الإبداع والتجديد لتحقيق ذلك، وهذا من خلال:

– التمسك بدين الإسلام، والإقرار بوحدانية الله تعالى، والإيمان بجميع الرسل، وتطبيق مختلف فروض الإسلام من طاعات وعبادات، ذلك أنّ الدّين الإسلامي يرتقي بعقل الإنسان إلى درجات النّضج والسّموّ باعتباره العنصر الأكثر فعالية في عملة البناء الحضاري، كما أنّ هذا الدّين يحرّر المسلمين من الجهل والعبودية والذّل والضّعف، ويحفظهم من الضّياع والشّتات ويضمن لهم الوحدة والعزّة والرّقي؛ إذ يقول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزّة بغيره أذلّنا الله"[1].

– طلب العلم والتزود بأنواع المعرفة لأنه أساس الحضارات وعمادها، به تزدهر حياة الأمم وتتطور، كونه ينمّي ملكات الفرد ويقوّيها ويفجّر مواهبه، وهذا لما يحمله من طاقات عقلية وفكرية كامنة.

– التحلي بحميد السيرة وطيب الخلال، ذلك أن الحضارات تتأثر بالأخلاق لأنّ لها دورا أساسيا في الحفاظ عليها؛ حيث إن "العنصر الأخلاقي هو العنصر القوي والفعال في الحفاظ على تماسك المجتمعات وتثبيت كيانها، وكلما قلت مناعة هذا العنصر، وتطرقت إليه عوامل الفساد كان ذلك مؤشرا على

---

1)– لماذا الضّلال بعد الهدى: عثمان قدري مكناس، منتديات سرداب الإسلامية www.alsrdaab.com

تصدع المنظومة الحضارية لتلك المجتمعات"[1]، فهي التي تؤمن الأمن والاستقرار في المجتمع وتحفظه من الفتن والمهالك التي تؤدّي به إلى الانهيار.

- ولا تقلّ المرأة شأنا عن الأخلاق في تشكيل المنظومة الحضارية لأيّ أمّة، فهي قد تكون صرحا مهمّا ومعلما شاهدا على تألّق الحضارة في أيّ دولة أو مجتمع، وقد تكون سببا من أسباب تقهقر وضياع الحضارة فيه، إذ تظهر قيمتها في النهوض بالصّرح الحضاري للدّولة باعتبارها عنصرا أساسيا في تشكيل الخليّة الأولى لبناء المجتمع؛ من حيث إنّها من تضع الولد وتعمل على تنشئته وتربيته، كما تسهم في القضاء على الكثير من الفواحش والمفاسد، فالمرأة الأندلسية لعبت دورا رياديا في رقيّ الحضارة بالأندلس ساعدها في ذلك بلوغها درجات عالية من العلم والأدب والفنون، فقد عملت على تكوين الأخلاق والطّباع والعادات لدى الرّجل، وقد ساهمت حتّى الجواري منهنّ في تثقيف أبناء المترفين وتعليمهنّ الخطّ والقرآن الكريم[2].

غير أنّ الوصيّة أظهرت موقف ابن الخطيب من المرأة الدّاعي إلى معاملتها بكلّ حذر وحيطة، فهو يحذّر من التّعاطي معهنّ في الأمور كلّها من حيث إنهنّ من تسبّب التّفرقة والشتات والضّياع بين الإخوة بسبب إفشائهنّ الأسرار وعدم التزامهنّ الصّمت، ولتأصّل جذور الحقد والحسد في صدورهنّ، إضافة إلى كون

---

1)- إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي: القادري بوتشيش، الأزمة الأخلاقية وأثرها في سقوط الأندلس، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، مارس 2002: 148.

2)- ينظر؛ الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي: محمد سعيد الدّغلي، منشورات دار أسامة، مكتبة الاسكندرية، ط1، 1404هـ-1984م: 44.

بعض البيوت والقصور كانت مملوءة بالجاريات الإسبانيات اللّواتي عملن جاسوسات لوطنهنّ الأصل، فكانت من أسباب انهيار الدّولة الإسلامية هناك باعتبار أنّ العرب دخلاء لابدّ من القضاء عليهم[1]، إضافة إلى تمتّع المرأة بالحرّية المطلقة ساعد على انتشار بعض مظاهر الفساد والانحلال الخلقي كالسّفور والإباحية في الملبس وقول الشّعر... فلهذا كان الحزم في التعامل مع المرأة ضروريا حتى تكون على خلق الإسلام وشيمه الرّفيعة، كالحشمة والحياء والتديّن لتقدّم صورة المرأة المسلمة الحقيقية التي كانت عليها سابقاتها في عصر النبوّة، ولتتفوّق على مثيلاتها من النّصرانيات وغيرهنّ الّتي كانت تعجّ بهنّ دولة الأندلس.

– الحفاظ على المال وذلك بصرفه وفق منهاج صحيح لاستغلاله أحسن استغلال، كونه يضمن الحياة الكريمة للفرد، ويحقق التقدم والسؤدد للأمة.

– الدّعوة إلى طاعة ولاّة الأمر مع نصحهم وإرشادهم، وذلك لضمان الاستقرار الداخلي والخارجي للدّولة باعتباره شرطا أساسيا في قيام الدّول وبنائها، وبثّ العدل لما له من دلالة حضارية[2]، وإقرار مبدأ الشورى، والمساهمة في اتّخاذ مجمل القرارات الّتي تخدم مصلحة الأمّة وتعمل على نماء الحضارة فيها وازدهارها بالاعتماد على ذوي الرّأي الصّائب والفهم الثّاقب.

---

1)– ينظر؛ إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس عصر ملوك الطّوائف، 466–479هـ، 1031–1067م: سهى بعيون، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط2، 1429هـ–2008م: 444.

2)– ينظر؛ النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري: رضا عبد الغني الكساسبة، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الاسكندرية– مصر، (د.ط)، (د.ت): 43.

د- العاطفة:

تمثل العاطفة روح الأدب، باعتبارها أحد أهم أركانه(1)، "وهي مجموعة من الانفعالات تتجمع حول شيء من الأشياء"(2)، أما الانفعال فهو: "الوجدان الذي يهز النفس ويثيرها"(3).

والوصايا نبع من المشاعر القوية لما تحمله من دلالات نفسية عميقة، كونها تعبر عن خلجات النفس ومكنوناتها، إضافة إلى أن الموصي يذهب في بث وصاياه ونصائحه انطلاقا من تجارب حياته التي عاشها بصواعدها وكبواتها التي يريد نقلها بصدق إلى شخص آخر بألفاظ رشيقة، ومعان دقيقة، ورؤى عميقة.

والوصية التي بين أيدينا تنضح بالإحساس الصادق وحرارة عاطفة الأبوة الحانية الصادرة عن أب يريد رسم الطريق الصحيح لأبنائه، ليسيروا عليه ويهتدوا به ليحيوا حياة طيبة، ومن الأمثلة على ذلك في الوصية:

– نعي ابن الخطيب نفسه لأبنائه، فقد جاءت العواطف فيه صادقة وقوية لينفذ الكلام إلى قلوبهم ويهزّ مشاعرهم ويحرك وجدانهم، ذلك لأنّ: " الكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب، وإذاخرج من اللسان لم يتجاوز

1)– ينظر؛ أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب، ص31. عن: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي: روز غري، دار الفكر العربي، بيروت– لبنان، (د.ط)، 1993: 86.

2)– دراسات في علم النفس الأدبي: حامد عبد القادر، لجنة البيان العربي، المطبعة النموذجية، القاهرة– مصر، (د.ط)، 1948: 52.

3)– المرجع نفسه: ص54.

الآذان"[1]، وهذا ليتأثروا بهذا القول، فيقبلوا إلى الوصية للعمل بها؛ إذ يقول: "إنّي مودّعكم وإن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا مما بدا، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادي الرحيل يسمع، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة تعقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدي، وتوضح لكم من الشفقة والحنو قصدي، حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدي"[2].

وكذلك يبدو الشعور الخالص الدال على محبة الأب الشديدة لأبنائه، بوضوح في وصيّته أبناءه بتوطيد علاقة المحبة فيما بينهم ليبقوا متحدين متحابين، ويتجنبوا الخصومة والعداوة، كما في قوله: "وأظهروا التعاضد والتناصر، وصلوا التعاهد والتزاور، ترغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأودّاء، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة"[3].

كما تجلّت كذلك في شفقته عليهم بتحذيرهم من الاهتمام بشراء العقار والأراضي في أندلس مهددة بالزوال وموشكة على النهاية، وهذا لخوفه عليهم من الشتات والضياع، وذلك في قوله: "ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة

1)- عيار الشعر: محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي(ت.322هـ)، تحقيق: طه الجابري وزغلول سلام، شركة فنّ الطّباعة، القاهرة- مصر، (د.ط)، 1956: 16.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 393.

3)- المصدر نفسه، 7: 404.

للمذلة والاحتقار، وساعيا لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعوقا عن الانتقال، أمام النوب الثقال"[1].

كما أتت العواطف نبيلة، جسدت صدق إحساس الأب في أعلى درجات السمو، قد طغى عليها الحزن والألم لما حذّر أبناءه من تقلد المناصب السامية في الدولة، وذلك نتيجة لشدة معاناته من التجربة السياسية التي خاضها وانعكاسها عليه، فيقول: "وإيّاكم وطلب الولايات رغبة واستجلابا، واستظهارا على الحظوظ وغلابا، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضيحة والعار، ومن امتحن بها منكم، اختيارا أو جبر عليها إكراها وإيثارا، فليتلقّ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقع عزل، وإدالة بإزاء بيع جدّ من الدنيا بهزل، ومزلة قدم، واستتباع ندم"[2].

وهكذا فإن الوصية طفحت بالمشاعر الشجية التي وسمت بحرارة عاطفة لسان الدين بن الخطيب وصدق إحساسه، المنبثقة من ذاته والمعبّرة عن صدق تجاربه، فجسدها في نصائحه القيمة التي شملت جوانب الحياة الدنيا والآخرة، لتكون المصباح الذي ينور طريقهم ويوجهها نحو الخير، ولعل تميز الوصية بهذه العواطف النبيلة هو ما أكسبها الخلود والذيوع.

---

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 404.

2)- المصدر نفسه، 7: 404.

2- الخصائص الأسلوبية والفنية للوصية:

أ- البناء اللغوي:

أ-1- الألفاظ:

تعتبر اللفظة أساس بناء اللغة في الأدب، وتعد أداة مهمة في نقل التجارب وإيصالها للمتلقين، حيث تتوقف عملية تصوير التجربة على مقدرة الأديب وموهبته الشخصية في انتقاء ألفاظه[1].

وبما أن الوصية هي تواصل بين الماضي والمستقبل، يعمد الموصي إلى استخدام ألفاظ مشحونة ومثقلة بتجارب الحياة، مليئة بالعواطف والأحاسيس التي تعكس واقع التجربة وطبيعتها لرسم صورها في ذهن المتلقي، وكشف آفاقها المستقبلية لكل من يريد الاقتداء بمن سبقوه والسير على منهجهم، ذلك أن "الوصايا تكشف عن المتغيرات النفسية التي تحددت داخل الإنسان نتيجة إحساسه بإيقاع الزمن الماضي في حياته الطويلة، والتي غالبا ما تكون مشحونة بالانفعالات والعواطف مرسلة على شكل رسائل أخلاقية وتهذيبية، تعليمية ووعظية، وسياسية إلى الموصى إليه"[2].

ولما كان هدف ابن الخطيب في هذه الوصية تقديم المواعظ والنصائح وتبليغها لأبنائه ليعملوا بها، فإنّه جنح إلى انتقاء ألفاظ تميزت بالسهولة والوضوح

---

1)- ينظر؛ قضايا النقد الأدبي الوحدة، الالتزام، الوضوح والغموض، الإطار والمضمون: بدوي طبانة، دار المريخ للنشر، الرياض- السعودية، (د.ط)، 1404هـ- 1984م: 161.

2)- وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية، روناك توفيق علي النورسي: 154.

والفصاحة والانسيابية في التعبير، كما جاءت مأنوسة مألوفة خالية من التعقيد، أعطاها لمسة عاطفية حتى تكون معانيها أكثر تأثيرا في الأبناء.

وقد ارتبط بعضها بالجانب الديني كالصلاة والصوم والزكاة وكتاب الله... وأخرى بالجانب الأخلاقي؛ فمن الكلمات التي دلت على الخلال الطيبة من أجل التحلي بها: الصدق والحشمة والأمانة... ومن التي دلت على الذميمة منها قصد التخلي عنها: الظلم والحسد والكذب... وأخرى عنيت بالجانب الاجتماعي؛ جاء بها لحضّهم على ضرورة توطيد العلاقات فيما بينهم وبين باقي أفراد المجتمع: التعاهد والتزاور والأرحام وغيرها، ومنها التي اتصلت بقساوة التجربة السياسية وشدة المعاناة: عثاري والبأساء وإحنة...

أ-2- العلاقة بين الألفاالمعا ظ وني:

وقد خدمت هذه الألفاظ المنتقاة الغرض المقصود من الوصية، ذلك أنها عملت على إيصال المعاني المختلفة التي كان هدفها إرشاد السلوك وتقويمه، وتهذيب الأخلاق، ونشر الفضائل وذم الرذائل، وذلك بالامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه؛ من طاعات وعبادات ومعاملات... ونقل عصارة التجارب المختلفة التي عاشها الأب لأبنائه.

وقد أشار ابن الخطيب إلى هذا الأمر بما سمي "مطاوعة اللفظ المعنى"[*]، وذلك أن تكون الألفاظ في آثار المبدعين تبعا لمعانيها جدا أم هزلا، ولكل مقام مقال يناسبه ومعرض من القول يلائمه، وما يصلح من اللفظ والتعبير من فن من الفنون قد لا يكون صالحا بالضرورة لغيره[1].

أ-3-الأسلوب وأساليب الوصية:

يبدو أن إحكام ابن الخطيب العلاقة بين اللّفظ والمعنى ظهر جليا في أسلوب هذه الوصية "وانحاز إليه أي -مطاوعة اللفظ للمعنى- في تعبيره النثري على مستوى الإيجاز، فجاءت ألفاظه وتعابيره متسقة مع معانيه، وعد ذلك من خصائص أسلوبيته، ومقومات لغته وحيويتها"[2].

ولأن الأسلوب هو "طريقة يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواها، ولاسيما في اختيار المفردات، وصياغة العبارات والتشابيه والإيقاع"[3].

---

*)- مصطلح نقدي ورد في رد عن رسالة إخوانية وصلته عن أبي عبد الله اليتيم وهو يمتدحها، وهي من الرسائل البليغة التي توفرت فيها السمة "الأدبية" وقد أتت في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب، 2: 100.

1)- ينظر؛ فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية، محمد مسعود جبران، 2: 186.

2)- المرجع نفسه، 2: 186-187.

3)- المعجم الأدبي: عبد النور جبور، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، (د.ط)، 1987: 20.

والوصية كغرض أدبي لها أسلوب يميّزها عن بقية الأغراض الأخرى، فقد اتّسم أسلوب وصية ابن الخطيب بملامح فنّية خاصّة كان أساسها الألفاظ المنتقاة التي اتصفت بالسلاسة والابتعاد عن الغموض.

وبما أن الوصية اقتضت معاني التدليل على خوض معارك الحياة بمختلف مناحيها، والاستفادة من نوائبها وتجاربها من جهة، وحرص الأب على تقديم الأفضل لأبنائه من جهة أخرى، فقد وجدناه يأمرهم تارة ويدعوهم إلى الهداية والسير على المنهج القويم الذي تضبطه الشريعة، والتخلق بالخلال الحميدة التي حثّ الإسلام على التحلي بها، وتارة أخرى وجدناه يحذرهم وينهاهم عن ارتكاب الآثام والكبائر ليجنبهم الوقوع في الأخطاء والزلل، وكان وراء ذلك عاطفة صادقة أراد بها جلب الخير لهم ودفع المضار عنهم، ولهذا فقد تنوعت الأساليب بين الخبرية والإنشائية.

أما الأساليب الخبرية فقد وردت قليلة في هذه الوصية مثال ذلك في الوصية حديث ابن الخطيب عن الخمر، فهو يخبر أبناءه عن إثمها ومضارها وحكمها، وغايته من ذلك إبعاد أبنائه عنها؛ إذ يقول: "والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، واللهو لم يجعله الله في الحياة شرطا والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوغ وأعطى، وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد، والله تعالى قد جعلها رجسا محرما على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السداد"[1].

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 402.

وأمّا الأساليب الإنشائية فقد جاءت غزيرة، وكان في طليعتها الأمر الذي هو "طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام"[1]، وقد خدم الغرض لأن الوصايا كانت موجهة من الأب لأولاده، وكانت الغاية من الأمر في هذه الوصية النصح والإرشاد، ومن ذلك قوله: "وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات، ورقوا على ذوي الزمانات والعاهات، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات، وعولوا عليه وحده في الشدائد، واذكروا المساكين إذا نصبتم الموائد، وتقرّبوا إليه باليسير من ماله، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أولي الأرحام والوشائج البادية الالتحام"[2].

ولما دعت ضرورة تقديم النصائح والمواعظ استخدام أسلوب النهي الذي قد يلجأ إليه الموصي للنهي عن القيام بالمنكرات والمعاصي، والابتعاد عن كل ما يفسد سلوك الإنسان ويخل به، فابن الخطيب ينهى أولاده عن الربا وأكل المال الحرام لأن الله حرمه على العباد، فيقول: "ولا تقربوا الربا فإنه من مناهي الدين... ولا تأكلوا مال أحد بغير حق يبيحه"[3]، وكذلك ينهى عن الخيانة والغدر وأمور أخرى من شأنها الإخلال بالعلاقات الاجتماعية، فيقول: "ولا

---

1)- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ط2، 1996: 184.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 403.

3)- المصدر نفسه، 7: 402.

تجزوا من أقرضكم دين الخيانة ولا توجدوا للغدر قبولا، ولا تقروا عليه طبعا مجبولا..."[1].

ويعتبر التحذير أحد الأساليب الإنشائية التي ترد في الوصية لتجنيبهم الوقوع في أمور تعود عليهم بالمضرة، وذلك من أجل النصح والتوجيه، ومن الأمثلة على ذلك في الوصية تحذير لسان الدين أبناءه من الكذب، مبينا لهم آثاره وعقوبته عند الله تعالى؛ إذ يقول: "وإياكم والكذب فهو العورة التي لا توارى، والسوأة التي لا يرتاب في عارها ولا يتمارى، وأقل عقوبات الكذاب، بين يدي ما أعد الله له من العذاب، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحق نطق"[2]، ويحذرهم كذلك من الظلم، فيقول: "وإياكم والظلم فالظالم ممقوت بكل لسان، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان"[3]، كما يحذر أبناءه أيضا من أمور الدنيا التي تلهي الإنسان عن جلب السعادة الأخروية؛ إذ يقول: "واحذروا القواطع عن السعادة كما تقطع السموم"[4].

وظهر النداء في الوصية، حيث قال: "فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد، ومشفق شفقة والد، واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه، وعوا مراشد هديه فيا فوز وعيه"[5]، وغرضه لفت انتباه أبنائه إلى نصحه وإرشاده.

---

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 401.

2)- المصدر نفسه، 7: 401.

3)- المصدر نفسه، 7: 402.

4)- المصدر نفسه، 7: 303.

5)- المصدر نفسه، 7: 395.

وقد تميزت هذه الوصية بوجود بعض الجمل الاعتراضية، منها ما كانت قصيرة وأخرى طويلة، ومنها قوله: "ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك –وعسى أن لا يكون ذلك– على آثاري"[1]، وكذلك قوله: "اعلموا هداكم الله تعالى الذي –بأنواره يهتدي الضلال، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحدث الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها الشمال– أني مودعكم إن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى"[2]. وكان غرضها الدعاء.

ووردت جملة الشرط وجوابها، ومن الأمثلة على ذلك: "فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمرا فاحقروه"[3].

ب- الإطناب:

اختلفت آراء النقاد والدارسين قدماء ومحدثين حول ظاهرة الإطناب[*] التي تميز بها نثر لسان الدين بن الخطيب، ومن بين الذين استحسنوها عبد الحليم الهروط، حيث يذكر: "لم يكن الإطناب كله عند لسان الدين ممجوحا زائدا عن الغرض، فقد يأتي مطلبا ملحا لبعض الأغراض والمواضيع –فنيا موضوعيا– يكاد لا يستكمل النص إلا به، ومن ذلك الوصايا، ورسائل الاستنجاد والمقامات"[4].

---

1)– نفح الطيب، المقري، 7: 393.

2)– المصدر نفسه، 7: 393.

3)– المصدر نفسه، 7: 404.

*)– الإطناب هو: زيادة اللفظ عن المعنى لفائدة.

4)– النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، عبد الحليم الهروط: 204.

وقد أتى الإطناب في وصية لسان الدين مواتيا للغرض الدّاعي إلى نقل تجارب حياة بأكملها، وعصارة ثقافات ممتزجة أملاها عليه موروثه الثقافي والفكري والديني، كما أن سعة اطلاعه وامتلاكه اللّغة وناصية الكلام ساعده في نظم الألفاظ بوفرة وصياغتها بكثرة، حيث: "كان أشبه بالجاحظ في تآليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم"[1].

وذكر لسان الدين أنه قد أطال في هذه الوصية؛ إذ يقول: "ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أن تقوى الله فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم في كل حال"[2]، ولعل غايته من ذلك هو إفادة أبنائه بأكبر قدر من النصائح والمواعظ، وإبراز تفوقه وتميزه على أهل المشرق الذي طالما كان هاجسا رافقه في تآليفه.

ج- الحمسانّت البديعية:

لقد حفلت الوصيّة بمجموعة من المحسّنات البديعية منها:

ج-1- الاقتباال نمـ سقالكر نآريم الوحديث الششيف:

لقد عرف الأدب تطورا واضحا بعد ظهور الإسلام، وهذا بالاستفادة من القرآن الكريم بالاقتباس منه وذلك "بأن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية أو آيات من كتاب الله تعالى خاصة هذا هو الإجماع"[3]، وهذا لما تميز به القرآن الكريم من إعجاز بلاغي وبياني وتضمنه لأغراض ومعان مختلفة، وقد أشار

1)- بلاغة العرب في الأندلس: أحمد ضيف، مطبعة مصر، (د.ط)، 1432هـــ-1924م: 220.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 405.

3)- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: 159.

الباقلاني إلى ذلك، فقال: "لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها"[1]، وباعتباره أيضا: "المصدر الأوّل الّذي يشكّل شخصية الأديب المسلم تشكيلا متميّزا"[2].

ونظرا لطبيعة الثقافة الدينية التي كان يزخر بها لسان الدين، التي كان القرآن الكريم أساسها، الذي تشبع بحفظه منذ نشأته الأولى على يد شيوخه الأجلاء، فقد عمد إلى تزيين هذه الوصية بآيات من كتاب الله العزيز، لما في ذلك من تناسب بين معاني القرآن وما تضمنته الوصية من نصح وتوجيه، وذلك قصد التأثير في أبنائه باعتبار أنّ القرآن من أقوى الحجج والدّلائل في الإقناع.

ومما ورد من الآيات القرآنية في هذه الوصية حديثه عن ضرورة وجوب الوصية على من يجب نصحهم، فقد قال" وجاعل النصيحة الصريحة لا سيما للولي المحبوب، والولد المنسوب القائل في الكتاب المعجز الأسلوب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾[3]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[4]"[1].

---

1)- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د.ط)، (د.ت): 296-305. عن: فنون النّثر الأدبي في آثار لسان الدّين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية، محمد مسعود جبران، 2: 253.

2)- الأدب الإسلامي: قضاياه ومفاهمه النّقدية، عباس محجوب: 12.

3)- سورة البقرة، الآية: 133.

4)- سورة البقرة، الآية: 132.

وقد ظهر الاقتباس في موضع آخر من الوصية وذلك للتدليل على أهمية العلم ليدفع أبناءه إلى اكتسابه، فيقول: "واعلموا أن بالعلم تستكمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلا بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللباب، والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]"[3].

ويقتبس في موضع آخر من القرآن الكريم لتحذير أبنائه من الوقوع في الزنا مذكرا إياهم بآثاره ومضاره؛ إذ يقول: "واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه، لو لم تتلق نور الله الذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يزنى بأهله، والله قد أعد للزاني عذابا وبيلا، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾[4]"[5].

وقد لجأ ابن الخطيب بالاقتباس من القرآن الكريم إلى "حل الآيات مع إبقاء شيء من ألفاظها ليظل قريبا من النص القرآني بمضمونه حتى لا يثقل على المتلقي في الانتقال من هذا الجو إلى جو آخر مغاير له"[6].

---

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 392.

2)- سورة الزمر، الآية: 9.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 399.

4)- سورة الإسراء، الآية: 32.

5)- نفح الطيب، المقري، 7: 402.

6)- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، عبد الحليم الهروط: 137.

ومن الأمثلة على ذلك في الوصية حين يدعو أبناءه إلى ضرورة العمل بالوصية لأن الدنيا امتحان، من نجح فيه يسعد في الدنيا والآخرة، فيذكر: "فاقتنوها من وصية، ومرام في النصح قصية، وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا، وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملا، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا"(1)، فهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ، ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(2).

وكذلك في أثناء حديثه عن توحيد الله تعالى الّذي هو أساس الدين الإسلامي وركيزته، فيقول: "والعقل متقدم، وبناؤه مع رفض أخيه متهدم، فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، تتره عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان"(3)، وهو هنا يشير إلى سورة الإخلاص؛ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ، ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(4).

وقد وجد ابن الخطيب في الأحاديث النبوية منبعا آخر نهل منه في كتابة هذه الوصية، ليدعم أقواله لإقناع أولاده وجذبهم للعمل بالوصية، ومن الأمثلة على وجود الاقتباس من الحديث الشريف هذا المقطع الّذي يدعو فيه أبناءه إلى الإيمان بالرسول ε وطاعته، والعمل برسالته، فيقول: "ثم ختم ديوانهم بنبي ملتنا

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 394.

2)- سورة الملك، الآيتان: 1-2.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 394-395.

4)- سورة الإخلاص، الآيات: 1-4.

المرعية الهمل، الشاهدة على الملل، فتلخصت الطاعة، وتعينت الإمرة المطاعة، و لم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة، ثم إن الله تعالى قبضه إذ كان بشرا، وترك دينه يضم من الأمة نشرا، فمن تبعه لحق به، ومن تركه تورط عنه في منتشبه، وكانت نجاته على قدر سببه، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي، فعضوا عليها بالنواجذ"[1]"[2].

وقد ورد كذلك في التحذير من النميمة قوله: "والنميمة فساد وشتات لا يبق عليه متات، في الحديث "لايدخل الجنة قتات"[3]"[4]، وقد لجأ إلى حل الأحاديث في سياق تحذير أبنائه من المعاصي المهلكة، فيقول: "فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود وتستدعي شوه الوجوه ونضج الجلود"[5]، فهو يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام: "شاهت الوجوه"[6].

وهنالك اقتباس من خطبة حجة الوداع في قوله: "اللهم إني قد بلغت فأنت خير الشاهدين"[7]، وهو اقتباس من قوله عليه الصلاة والسلام: "اللهم قد بلغت فاشهد"[1].

---

1)- رواه ابو داوود والترمذي وقال حديث حسن صحيح، ورواه النووي في الأربعين.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 402.

3)- رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في المشكاة، 3: 482.

4)- نفح الطيب، المقري، 7: 402.

5)- المصدر نفسه، 7: 396.

6)- رواه النسائي في السّنن الكبرى برقم 11557، وكذلك في عمدة التّفسير، 2: 111.

7)- نفح الطيب، المقري، 7: 396.

ج-2- السجع والتوازن:

أتحف لسان الدين بن الخطيب هذه الوصية بالسجع الذي احتفى به كثيرا في إبداعاته الفنية الأخرى، وقد أتى في اصطلاح البلاغة أن السجع هو: "تواطؤ فاصلتين أو الفواصل على حرف واحد أو على حرفين متقاربين أو حروف متقاربة وهو يقع في الشعر كما يقع في النثر"(2)، وعلى الرغم في اختلاف البلاغيين والنقاد حول استعماله، فقد استحسنه بعضهم محتجّين في ذلك بوروده في القرآن الكريم(3)، فهو تطرب له الآذان لما يحدثه من موسيقى تشد السامع وتؤثر في المتلقي.

وليزداد الكلام حسنا وجب الاعتدال الذي سببه الموازنة وهي "أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن... وهذا النوع من الكلام أخوالسجع في المعادلة دون المماثلة"(4)، ومما ورد في ذلك من الوصية: "ولا يثمر في العاجل إلا اقتحام العيون وتطريق الظنون وتطويق الاحتقار"(5).

---

1)- تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، الطبري، 2: 490.

2)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط2، 1425هـ-2005م: 250.

3)- المرجع نفسه: 259.

4)- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد عبد الكريم بن الأثير الموصلي (ت.637هـ)، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، ط2، 1411هـ-1990م، 1: 272.

5)- نفح الطيب، المقري، 7: 400.

وقد تفنن لسان الدين بن الخطيب في تزيين هذه الوصية بألوان السجع حيث جعلها تتميز بإيقاع وتنغيم خاصين من خلال الانسجام الصوتي الحادث بين قصار الفقرات، وذلك لتأكيد المعنى وإبراز مختلف الأحاسيس والعواطف التي نبعت من قلبه، ومن أنواع السجع المستعملة في الوصية:

المطرف: "وهو ما اختلفت فيه الفواصل وزنا واتفقت رويا"[(1)]، ومن ذلك قول ابن الخطيب: "وأطيعوا أمر من ولاه الله تعالى من أموركم أمرا، ولا تقلبوا من الفتنة جمرا، ولا تداخلوا في الفتنة زيدا ولا عمرا"[(2)].

وقوله كذلك: "واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه، لو لم تتلق نور الله الذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يزنى بأهله"[(3)].

المتوازي: "وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان وزنا وتقفية"[(4)]، ومما ورد من هذا اللون في الوصية قول ابن الخطيب: "وللإنسان مزية لا تجهل، وحق لا يهمل، فأظهروا التعاضد والتناصر، وصلوا التعاهد والتزاور"[(5)].

1)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 252.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 401.

3)- المصدر نفسه، 7: 402.

4)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 253.

5)- نفح الطيب، المقري، 7: 404.

وقوله أيضا: "ليحذر معاداة الرجال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء السر، وسكر الاغترار"[1].

المرصع: "وهو أن يكون ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر مثل ما يقابلها من الأخرى وزنا وتقفية"[2] ولهذا اللون من السجع تأثير خاص لدى المتلقي سببه ذلك الإيقاع السريع والمنظم الناتج عن استعمال الجمل القصار، ومثال ذلك في الوصية: "فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقت الكمال"[3].

وقوله أيضا: "فالبناء بأساسه، والسيف برئاسه"[4].

السجع الذي طالت فقرته الثانية عن الأولى: ومما أتى من ذلك في الوصية، قوله: "واغبطوا من كان بسنة الغفلة مفيقا، واجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا تسلكوا منه طريقا"[5].

وكأن هذا السجع تعبير عن تنهدات الكاتب جراء معاناته التي قاساها من خصومه السياسيين.

السجع المركب: يتواصل إبداع لسان الدين بن الخطيب في استعمال ضروب السجع التي كان من بينها السجع المركب الّذي "يعمد من خلاله إلى

---

1)- المصدر نفسه، 7: 404.

2)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: ص253.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 398.

4)- المصدر نفسه، 7: 398.

5)- المصدر نفسه، 7: 401.

التلوين والتنويع في وقع الأصوات المتولدة عن الإيقاعات المتباينة في السجعات مع اعتماده على سجعة أصلية"[1].

وقد سعى ابن الخطيب من خلال استخدامه هذا اللون من ألوان السجع في الوصية إلى إبراز المقدرة والموهبة في اجتياز الصعاب التي يفرضها هذا النوع من السجع التي توجب على الأديب اكتساب ذخيرة لغوية غزيرة، واطلاع واسع على علوم البلاغة بعامة وألوان البديع بخاصة.

وهذا ما سماه محمد مسعود جبران "السجع التوليدي"[2]؛ حيث جعله من أشكال "لزوم ما لا يلزم لأن الكاتب يلزم نفسه على سجعة رئيسية أصلية يولد من خلالها سجعة فرعية"[3].

ومما ورد من السجع المركب في الوصية قوله: "وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أولي الأرحام، والوشائج البادية الالتحام، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، وتفسد السر والجهر"[4]، وهو مثال عمد فيه توليد فاصلتين فرعيتين داخل فاصلة رئيسة.

وقوله أيضا: "فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء عسكر مجر، وغدا شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا

---

1)- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، عبد الحليم الهروط: 186.

2)- فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية، محمد مسعود جبران، 2: 268.

3)- المرجع نفسه، 2: 268.

4)- نفح الطيب، المقري، 7: 403.

بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم من لم يُتّعظ به في أمر"[1]، وهو هنا يورد أربعة فواصل فرعية داخل فاصلة رئيسة وهو أصعب ألوان السجع المركب وأكثره تعقيدا[2].

ج-3- لزوم ما لا يلزم :

عرفه القزويني فقال هو: "أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع"[3].

وقد سماه ابن المعتز: الإعنات، و عده من محاسن الكلام، وسمي كذلك لأن الشاعر أو الناثر قد يلتزم في كلامه بحرف أو أكثر قبل حرف الروي، وقد يحسن إذا أتى عفوا ويقبح إذا أتى من تكلف أو تصنع[4].

وجاء استخدامه في الوصية ليزيدها حسنا، فقد عمد ابن الخطيب إلى استعماله نظرا لملكته اللغوية وبراعته في التأليف، ومما ورد من ذلك في الوصية: "الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، ملهم الهدى الذي تطمئن به القلوب، ومُوضح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب،

---

1)- المصدر نفسه، 7: 393-394.

2)- ينظر؛ النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، عبد الحليم الهروط: 187.

3)- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع مختصر تلخيص المفتاح: محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين الخطيب القزويني (661هـ- 739هـ)، اعتنى به وراجعه: عماد بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان، ط3، 1419هـ-1992م: 223.

4)- ينظر؛ علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 256.

لاسيما للولي المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾[1]، وقال أيضا: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[2]، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زُرّت على نوره جيوب الغيوب، وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تصمه العيوب، والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والاقتداء الموصل للمرغوب، والعز والأمن من اللغوب"[3]، وقد التزم حرفًا واحدًا قبل الفاصلة وهو الواو الساكنة.

ج-4- الجناس:

يعرف الجناس عند البلاغيين بأنه: "تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى"[4]، وهو من ألوان البديع التي وشحت بها هذه الوصية، وذلك لما يخلفه من موسيقى وتنغيم نتيجة ذلك الجرس اللفظي الموحد الذي يفرضه التشابه في حروف الألفاظ المستخدمة، ولهذا "سمي هذا النوع من الكلام مجانسا لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد"[5].

وقد خدم الجناس هذه الوصية لأنه جعل كلا من المؤلف والمتلقي في اتصال مباشر لما يحدثه من صدى في الآذان ووقع في القلوب، وهذا لأن

---

1)- سورة البقرة، الآية: 133.

2)- سورة البقرة، الآية: 132

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 392.

4)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 235.

5)- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، 1: 241.

الكلمات المتجانسة وسيلة لنقل مختلف العواطف والمشاعر والتجارب لجعلها تنفذ إلى قلوب أبنائه ومسامعهم لتؤثر فيهم، وهذا من خلال "التجاوب الموسيقي الصادر عن تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصا تطرب الآذان، فتهتز له أوتار القلوب فيتجاوب مع أصداء أبنيتها"[1]، ومن بين أنواع الجناس المستخدمة في هذه الوصية:

المماثل: وهو من الجناس التام: "وهو مااتفقت فيه الكلمتان المتجانستان في نوع الأحرف وهيآتها وترتيبها وكانتا من نوع واحد"[2].

ومثال ذلك في الوصية قوله: "وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زلفى، الممحوضة لمن يعلم السر وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام"[3]، فالقيام في الكلمة الأولى معناها القيام بفعل أداء الصلاة، والقيام في الكلمة الثانية معناها القيام بالليل، ولعل الغرض من هذا الجناس هو التأكيد على أداء الصلاة سواء كانت فرضا أم نافلة.

وكذلك في قوله: "وأطيعوا أمر من ولاه الله تعالى من أموركم أمرا"[4]؛ فأمر في الكلمة الأولى هي ضد النهي، وأما أمر الثانية فهي بمعنى: الشأن أو الحاجة، ولعل الغرض من هذا الجناس هو التأكيد على طاعة ولي الأمر لأنه يهتم بقضايا رعيته.

---

1)- المصدر نفسه، 1: 248.

2)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 236.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 399.

4)- نفح الطيب، المقري، 7: 401.

وأما أمثلة الجناس غير التام الوارد في الوصية فنذكر منه:

المطرف: "وهو أن يختلف بزيادة حرف واحد في الأول أو الوسط أو الآخر"[(1)]، ومن الأمثلة على ذلك: " فلم أجد خابط ورق، ولا مصيب عرق، ولا نازع حطام، ولا متكلف فطام، ولا مقتحم بحر طام"[(2)].

وورد كذلك في قوله وهو يتحدث عن الصلاة: "والوسيلة إلى بلّ الجوارح ببرود الذكر وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضامنة حسن العشرة من الجار للمسالمة من الفجار"[(3)].

اللاحق: وهو "اختلاف الكلمتين في نوع الأحرف، ويشترط أن لا يكون الاختلاف في أكثر من حرف ويكون الحرفان متباعدين في المخرج"[(4)]، ومثال ذلك في قوله: "وبعد، فإني لما علاني المشيب بقمته، وقادني الكبر في رمته، وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلق بعيني سعيه"[(5)].

والملاحظ ههنا اختلاف الكلمات في حروفها الأولى، إضافة إلى أن هذه الحروف متباعدة في المخرج وهي: القاف والراء والهمزة في: قمته، رمته، أمته، وكذلك الراء والسين في رعيه وسعيه.

---

1)- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني: 216.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 396.

3)- المصدر نفسه، 7: 397.

4)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 239.

5)- نفح الطيب، المقري، 7: 392.

المضارع: وهو: "ما اختلفت فيه الكلمتان في نوع الحروف، ويشترط أن لا يقع الاختلاف في أكثر من حرف، ويكون الحرفان متقاربين في المخرج"[1].

ومما ورد من ذلك في وصية ابن الخطيب قوله: "واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل"[2]، والملاحظ أن العين والهمزة في العسل وأسل هي حروف من المخرج نفسه: حروف حلقية.

وكذلك قوله: "والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة"[3]، وكل من الصاد في صاغرة والسين في ساخرة هي متقاربة في المخرج وهي من الحروف الصفيرية.

المزدوج: المكرر أو المردود: وهو: "تتابع الكلمتين المتجانستين في أي نوع من أنواع الجناس"[4].

ومثال ذلك في الوصية قوله: "والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر"[5].

وقوله أيضا: "واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتعاد"[6].

---

1)- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني: 217.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 393.

3)- المصدر نفسه، 7: 393.

4)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 243.

5)- نفح الطيب، المقري، 7: 402.

6)- المصدر نفسه، 7: 403.

المصحّف: المرسوم: وهو"أن تتماثل الكلمتان المتجانستان في الخط والرسم، وتختلفان في النقط"(1).

ومن الأمثلة على ذلك في الوصية، قول ابن الخطيب: "فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود، وتستدعي شوه الوجوه ونضج الجلود"(2)، وكذلك: "ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها، وتلفكم الجهالة بسكرها، وتتوهموا أن سعيكم جلبها، وجدكم حلبها"(3).

ج-5- الطباق والمقابلة:

الطباق هو لون من أنواع البديع المعنوي(4)، أما في اصطلاح البلاغيين فهو: "الجمع بين الشيء وضده في كلام منثور أو بيت شعري"(5).

وقد زين لسان الدين هذه الوصية بهذا الضرب من البديع ليزيد المعنى دقة ووضوحا من أجل ترسيخ جملة من القيم والمثل في أذهان أبنائه، كان أساسها إشاعة الفضيلة وذم الرذيلة.

ومن أمثلة الطباق في الوصية، قول ابن الخطيب: "واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتعاد، واعلموا أن الله سبحانه بالمرصاد، وأن الخلق زرع وحصاد"(6).

---

1)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 243.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 396.

3)- المصدر نفسه، 7: 404.

4)- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني: 190.

5)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 112.

6)- نفح الطيب، المقري، 7: 403.

والطباق ههنا بين معاش ومعاد: وغرضه دعوة أبنائه إلى التأمل في الموت والحياة، والهدف من ذلك الترغيب في الآخرة، والتحذير من الانغماس في مفاتن الدنيا وزخرفها لأن الحياة الدنيا فانية زائلة.

وقد ورد كذلك بين زرع وحصاد والمراد به: التذكير بالحساب والعقاب لأن الجزاء في الآخرة وعد بالجنة ووعيد بالنار حسب تقوى الفرد وما يقوم به من أعمال صالحة، وهكذا فهو يدعوهم إلى الزهد والتقوى وأداء الطاعات والعبادات وترك المعاصي.

وقوله أيضا: "وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا، فخيرها لا يقوم بشرها، ونفعها لا يقوم بضرها"[1]؛ وقد ظهر بين خيرها وشرها، ونفعها وضرها، والطباق هنا انعكاس لحالة ابن الخطيب النفسية المضطربة التي عاشت الصراع بين تيارين متعاكسين وهما الخير والشر، وكذلك تجسيدا لتجربته السياسية التي ذاق فيها العذب والعذاب ولكن لم ينفعه وقت المحنة لا مال ولا جاه، فراحة الإنسان لن تكون إلا في ظل حياة الزهد والتصوف

وقوله أيضا: "وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمرا فاحقروه"[2]؛ ورد الطباق بين برز فاستروه، وأعظم واحقروه، وجاء الطباق هنا للتأكيد على صيانة الأسرار وحفظها، والتقليل من التعاطي مع النساء في الأمور كلها، وقد أضفى هذا التضاد الموجود بين جملة الشرط وجوابها تنغيما خاصا وإيقاعا موسيقيا لعل الغرض منه التأثير في أسماع أبنائه.

1)- المصدر نفسه، 7: 404.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 404.

والطباق في الأمثلة السابقة كان من نوع الإيجاب، وقد استخدم ابن الخطيب في وصيته طباق السلب وهو: "ما كان أحد طرفي الطباق مثبتا والآخر منفيا"[1]، ومن الأمثلة على ذلك: "واعلموا أن هذه الوظائف من ذكر مجهور وغير مجهور تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المتفرقات"[2]؛ ظهر طباق السلب بين مجهور وغير مجهور والغرض منه التأكيد على ضرورة الاهتمام بالواجبات الدينية وتفضيلها على باقي الأمور الدنيوية.

وقوله أيضا: "الله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعلمون الذي لا يسأل عن شيء وهم يسألون"[3]؛ جاء الطباق بين لا يسأل ويسألون، وهذا للتأكيد على قدرة الله العظيمة في الخلق، وأنه هو من يتولى السؤال والحساب.

وقد استعان إلى جانب الطباق بالمقابلة وهي: "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب"[4].

وقد أتت قليلة في هذه الوصية ومن ذلك قوله: "وأمروا بالمعروف أمرا رفيقا، وانهوا عن المنكر نهيا حريا بالاعتدال حقيقا"[5]، وظهرت بين: امروا

1)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 119.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 398.

3)- نفح الطيب، المقري، 7، 395.

4)- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود: 126.

5)- نفح الطيب، المقري، 7، 401.

بالمعروف أمرا وانهوا عن المنكر نهيا، وقد خدمت هذه المقابلة الغرض من الوصية لأنها تدعو إلى ذلك.

ج-6- التّرادف التوكرّار:

يمتلك ابن الخطيب معجما لغويا ثريّا، امتاز بوفرة الألفاظ، لهذا عمد في وصيّته إلى استخدام التّرادف الذي هو: "دلالة لفظين مفردين على معنى واحد"[1]، وهو يفيد الإبانة والوضوح وذلك بإبراز المعنى الواحد في عدّة صور والتّنويع في أساليب التّعبير تفاديا للتّكرار، وقد يحدث متعة خاصّة عن طريق اتّصال الألفاظ المترادفة إيقاعيا عن طريق السّجع والجناس[2]، وذلك للتأثير في المتلقّي.

وقد انعكست غزارة الرّصيد اللّغوي لدى ابن الخطيب في تعدّد وصاياه ونصائحه التي انتقاها من كثرة تجاربه في الحياة والتي يريد تبليغها لأبنائه، ومن ذلك قوله: "وإيّاكم وطلب الولايات رغبا واستجلابا، واستظهارا على الحظوظ وغلابا، وذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضيحة والعار، ومن امتحن بها منكم اختيارا، أو جبر عليها إكراها وإيثارا، فليتلقّ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أنّ قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقّع عزل وإدالة بإزاء بيع جدّ من الدّنيا بهزل، ومزلّة قدم، واستتباع ندم، ومآل العمر كلّه موت ومعاد،

1)- الألفاظ اللغوية خصائصها وأنواعها: حسين عبد الحميد، دار الكتب، (د.ط)، 1971: 72.

2)- ينظر؛ المرجع نفسه: 76.

واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله ممّن نفعه بالتّبصير والتّنبيه، وممّن لا ينقطع بسببه عمل أبيه"[1].

وكان الترادف ههنا بين: رغبة واستجلابا، والفضيحة والعـــار، وفتنـــة ومحنة، وموت ومعاد، والتّبصير والتّنبيه، وقد أتى ابن الخطيب بهذه المترادفـــات ليدلّ أبناءه على طبيعة التّجربة السّياسية القاسية التي عاناها وآثارها، التي دلّت عليها مشاعره المليئة بالحزن والألم والأسى.

وقد ورد التّكرار في الوصيّة، وبخاصّة لفظ الجلالة، ولعلّ تكرار هذه اللّفظة دليل على قرب ابن الخطيب من الله، وثقته به وتوكّله عليه، مع إبراز القيمة الدّينية للوصيّة، ومن ذلك في الوصية قول لسان الدّين: "الله الله في الصّلاة ذريعة التجلّة"[2] وهذا للتّأكيد على محاسن الصّلاة ليحثّ أبناءه على القيام بها.

د- الصّرو البيانية:

كان استعمال الصّور البيانية في الوصيّة قليلا، لأنّها تقوم على النّصـــح والإرشاد، فهي تعتمد على التقريرية والمباشرة لأنّها تخاطب العقل، فلا مجـــال للخيال، وأمّا عن الصّور الّتي وردت فيها فكان الغرض منها إيضـــاح المعـــنى والتّأكيد عليه، ومن ذلك:

التّشبيه البليغ في قول ابن الخطيب: "إيّاكم والكذب فهو العورة التي لا توارى، والسّوأة التي لا يرتاب في عارها ولا يتمارى"[3]؛ إذ شبّه الكذب

1)- نفح الطيب، المقري، 7: 405.

2)- المصدر نفسه، 7: 397.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 401.

بالعورة؛ وأراد بذلك اجتناب الكذب كضرورة اجتناب إظهار العورة، وشبّبهه (الكذب) بالسّوأة؛ حيث جعله كالفاحشة التي يبقى عارها وآثارها، وكان قصد ابن الخطيب من هذا التّشبيه رسم صورة هذه الصّفة الذّميمة في أذهان أبنائه وتركها راسخة فيهم ليتجنّبوها، وقد اعتمد على هذا النّوع من التّشبيه لأنّه يجمع بين الإيجاز وحسن البيان[1].

وكذلك التّشبيه الظّاهر أو الصّريح في قول ابن الخطيب: "واحذروا القواطع عن السّعادة كما تحذر السّموم"[2]؛ وهذا لتوضيح المعنى وتأكيده وكانت الغاية من هذا التشبيه ترغيب أبنائه في البحث عن كلّ أسباب السّعادة في الدّنيا والآخرة.

وقد ظهرت الاستعارة المكنية في قول ابن الخطيب: "أنّي مودّعكم إن سالمني الرّدى"[3]؛ حيث شبّه الرّدى بالعدوّ الّذي يحارب ويسالم؛ حيث حذف المشبّه به (العدوّ) وترك المشبّه (الرّدى)، وأشار إلى ذلك بأحذ لوازمه (سالمني)، ليؤكّد لأبنائه استشعاره بدنوّ أجله ليقبلوا على الوصيّة.

كما تحسن الإشارة إلى إفادة ابن الخطيب وصيّته من موروثه الثقافي الأدبي، وذلك لاطّلاعه الواسع على الأدب العربي قديمه وحديثه، ومغربيه

---

1)- ينظر؛ علم البيان دراسة تحليلة لمسائل البيان: بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسّسة المختار للنّشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 1425هـ-2004م: 22.

2)- نفح الطيب، المقري، 7: 403.

3)- نفح الطيب، المقري، 7: 393.

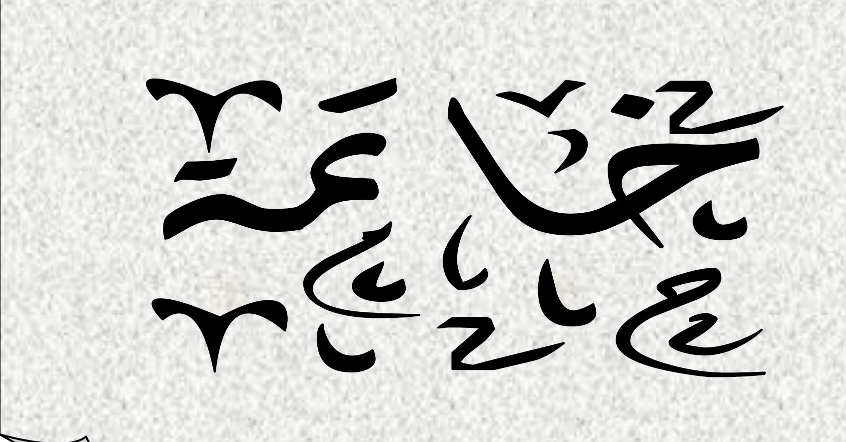
ومشرقيه[1]، وبخاصّة الأمثال العربيّة كونها تخدم الغرض من الوصيّة، وذلك بجعل المتلقّي يستفيد من تجارب الآخرين المستقاة من الخلاصة المودعة في المثل.

وممّا ورد من ذلك في وصيّة لسان الدّين بن الخطيب: "بيدي لا بيد عَمرُو"[2]، وهو قول للزّباء حين أرادت أن تنتحر، والغرض منه اجتناب الضّعف والاستسلام لمواجهة الحياة بكلّ عزم وثبات، وعيشها بطريقة صحيحة تضمن السّعادة للفرد.

وهكذا، فإنّ اعتماد ابن الخطيب في كتابته لهذه الوصيّة على الأسلوب المتميّز، والمحسّنات البديعية، واستعماله للصّور ناتج عن براعته اللّغوية في التّأليف، وكذلك العمل على صياغة الوصيّة بطريقة لطيفة لتترك أثرا حسنا في نفوس أولاده ليقبلوا عليها ويعملوا بها.

1)- ينظر: النّثر الفنّي عند لسان الدّين بن الخطيب، عبد الحليم الهروط: 147.

2)- قاموس الأمثال العربية: عفيف عبد الرّحمن، مكتبة ناشرون، لبنان، ط1، 1998م: 186. نفح الطّيب، 7: 394.


خاتمة

وبعد، فقد انتهى هذا البحث إلى نتائج أسجّل أبرزها في الآتي:

- الوصيّة أدب تهذيبيّ يعنى بتقويم الأخلاق، وتوجيه سلوك الفــرد في الحياة مهما كانت منزلته في المجتمع، وذلك لحاجته الفطريّة الماسّة إليها لتجنيبــه الوقوع في الأخطاء والزّلل وذلك بالاستفادة من تجربة الآخرين، وقد تبيّن عــن الدّراسة مدى أصالة هذا الفنّ وأقدميته الّذي بقيت جذوره مرتبطــة بوجــود الإنسان على وجه الأرض.

- لقد حفل الأدب العربي بوصايا كثيرة ومتنوّعة، غيّر الإسلام معالمها، فضلا عن بعض مظاهر التطوّر الحضاري الّذي عرفه المجتمع آنذاك.

- من خلال التطرّق إلى أغراض الوصيّة في الأندلس تبيّن مدى تفاعلها مع معطيات حياة الفرد الأندلسي، وقد أتت على شكل نصوص نثريّة، وقصائد ومقطوعات شعرية مستقلة أو متضمّنة.

- لقد سايرت الوصيّة الواقع السياسي للإنسان الأندلســي المتمثــل في محاولة الاستقرار والعيش في أمن وعزّ، وذلك ببثّ العدل ونبذ الظّلم والتسلّط، والقضاء على الفتن والصّراعات الداخلية والخارجية، خاصّة ذلك الصّراع الدّائم مع المسيحيين والنّصارى.

- وقد أولت الوصيّة الأندلسية اهتماما كبيرا للتّربية باعتبارها وســيلة ضرورية في تنشئة الفرد وبناء شخصيته، فأصبح الموصي مصلحا اجتماعياً يعالج أسباب الفساد والانحلال عن طريق الحثّ على التمسّك بالدّين وتطبيق فروضه، والتحلّي بفضائل الأخلاق، والرّقي بالمجتمع عن طريق اكتساب مختلف العلــوم والمعارف.

- خاضت الوصيّة في كيفية تعامل الأندلسيين مع الحياة، وألّمت بأحوالهم المختلفة كالتّعامل مع الأصدقاء وعدم الاغتراب والحزم والعزم.

- لقد كان لسان الدّين بن الخطيب من أبرز الأعلام والشّخصيات التي أنجبتهم الأندلس، تميّز فكره بالموسوعية وتعدّد المعارف الذي انعكس في عطائه السّياسي والأدبي، وإسهامه في صناعة حضارة الأندلس، وهذا من خلال ما خلّفه من وصايا كانت نظما وقوانين ينتهجها كلّ من الحاكم في تسيير شؤون مملكته، والوزير في تصريف أعباء الدّولة، والوالي في عمالته... والعبد في تمتين علاقته بخالقه وتبصرته بمعرفة أحوال دنياه وآخرته، وحقيقة الإله المطلقة.

- كانت وصيّة لسان الدّين بن الخطيب وعاء تضمّن عددا من الأفكار التي كانت عصارة تجربته العميقة وثقافته الواسعة، نصح بها أولاده، فكانت دستورا يقتدون به ليهنأوا في معاشهم ويسعدوا في معادهم، ويعملوا على رقي المنظومة الحضارية لدولة الأندلس، إضافة إلى أنّها اتّسمت بصدق العاطفة وملامح فنّية متميّزة تمثّلت في جودة الأسلوب وروعته، إضافة إلى احتفائها بألوان من البديع المختلفة كالاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشّريف، والسّجع والجناس والطّباق...، والصّور البيانية، وتضمينها الموروث الثقافي الأدبي وذلك ليبرز ابن الخطيب مقدرته الفنّية ومواهبه الأدبية.


قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الكتب:

1- الإحاطة في أخبار غرناطة ذو الوزارتين: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة– مصر، ط2، 1393هـ– 1973م.
2- الأدب الإسلامي قضاياه المفاهمية والنقدية: عباس محجوب، حدار للكتاب العالمي، عمان– الأردن، (د.ط)، 2006م.
3- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: مصطفى الشكعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1989.
4- الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص: حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط2، 1443هـ- 2003م.
5- أدب السياسة في العصر الأموي: أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر الفحالة، ط1، (د.ت).
6- الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين: نور الهدى الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2008.
7- أدب العرب في عصر الجاهلية: حسن الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط3، 1417هـ–1997م.

8- الأدب المفرد: البخاري، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الحديث، القاهرة مصر، (د.ط)، (د.ت).

9- الأدب في التراث الصوفي: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة غريـب، مصر، (د.ط)، (د.ت).

10- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: أحمد المقري، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، لجنة التّراث الإسلامي، المغرب، (د.ط)، 1980.

11- أساليب النثر الفني: لطيف محمد العكام، مطبعـة الآداب، النجـف، (د.ط) 1974م.

12- إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس عصر ملوك الطّوائـف، 466-479هـ، 1031-1067م: سهى بعيون، دار المعرفـة، بـيروت-لبنان، ط2، 1429هـ-2008م.

13- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني، تحقيق السيد أحمـد صقر، دار المعارف، مصر، (د.ط)، (د.ت).

14- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تـاريخ إسبانيا الإسلامية ذو الوزارتين: لسان الدين بن الخطيـب السـلماني، تحقيق وتعليق: إ.ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت- لبنان، ط2، آذار 1956.

15- آفاق غرناطة بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي: عبد الحكيم الدنون، دار المعرفة، دمشق- سوريا، ط1، 1408- 1988م.

16- الألفاظ اللغوية خصائصها وأنواعها: حسين عبد الحميد، دار الكتب، (د.ط)، 1971.

17- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع مختصر تلخيص المفتاح: محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين الخطيب القزويني (661هـ- 739هـ)، اعتنى به وراجعه: عماد بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان، ط3، 1419هـ-1992م.

18- البخلاء: الجاحظ، قدّم له وشرحه: عبّاس عبد الستير، منشورات ومكتبة دار الهلال، بيروت- لبنان، ط3، 1989.

19- البداية والنهاية في التاريخ: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير (ت.744هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة- مصر، (د.ط)، 1963م.

20- بلاغة العرب في الأندلس: أحمد ضيف، مطبعة مصر، (د.ط)، 1432هـ-1924م.

21- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين: ابن عذاري المراكشي، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنبيب، عبد القادر رزمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1406هـ- 1985م.

22- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت.255هـ)، وضع حواشيه: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، مجلد 1، ط3، 1424هـ- 2003م.

23- تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطــبري (224، 310هــ)، راجعه وقدم فهارسه: نواف الجــراح، دار صــادر بيروت لبنان، مجلد: 2، ط2، 1426هــ- 2005م.

24- تاريخ الفكر الأندلسي: أنخل جنثالث بالنثيا، نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، (د.ط)، (د.ت).

25- جامع متون اللغة العربية اعتنى به وحققه: أبو عبد الرحمن عادل بــن سعد، دار الهيثم القاهرة، مصر، ط1، 1426هــ- 2005م.

26- جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاخرة: أحمد صفوت زكي، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 1985م.

27- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى: أبو يحيى بن عاصم الغرناطي (ت.857هــ)، تحقيق: صالح جرار، دار البشــير، عمــان- الأردن، (د.ط)، 1410هــ/1989م.

28- حاشية رد المحتار على الدر المختار: شرح تنوير الأبصار فقه أبي حنيفة، ابن عابدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بــيروت- لبنــان، (د.ط)، 1421هــ-2001م.

29- الحياة الاجتماعية في الأنــدلس وأثرهــا في الأدب العــربي والأدب الأندلسي: محمد سعيد الــدّغلي، منشــورات دار أســامة، مكتبــة الاسكندرية، ط1، 1404هــ-1984م.

30- الحياة الأدبية عصر بني أمية: محمد عبد المنعم خفــاجي، دار الكتــاب اللبناني، بيروت-لبنان، ط2، 1980م.

31- دراسات في العصر الجاهلي وصدر الإسلام: زكريا عبد الرحمن صيام، ديوان المطبوعات الجامية، الجزائر، (د.ط)، 1984.

32- دراسات في علم النفس الأدبي: حامد عبد القادر، لجنة البيان العـــربي، المطبعة النموذجية، القاهرة- مصر، (د.ط)، 1948.

33- دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا: عصمت عبد اللّطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1408هـــ/1988م.

34- ديوان أبي إسحاق الإلبيري: إبراهيم بن مسعود بـــن ســـعد التجـــيبي الإلبيري، تحقيق: رضوان محمد الداية، دار قتيبة، دمشق- سوريا، ط2، 1401هـــ/1981م.

35- ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام: لسان الدين بـــن الخطيـــب، دراسة وتحقيق: محمد شريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيـــع، الجزائر، ط1، 1973.

36- الديوان: ابن خاتمة الأنصاري، تحقيق: محمد رضوان الداية، دمشـــق، سوريا، (د.ط)، 1972.

37- الديوان: ابن عبد ربّه، تحقيق: محمد رضوان الدّاية، مسؤّؤة الرّســـالة، بيروت- لبنان، ط1، 1399هـــ/1979م.

38- الديوان: عبد الكريم القيسي، تحقيق: جمعة شـــيخة ومحمـــد الهـــادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراســـات، بيـــت الحكمة، (د.ط)، 1988.

39- الديوان: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، (د.ط)، (د.ت).

40- الديوان: ميمون بن قيس بن جندل بن ثعلبة الوائلي الأعشى (ت.7هـ)، شرح يوسف شكري بركات، دار الجيل، بيروت- لبنان.

41- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط1، 2000م.

42- رسائل موحدية مجموعة جديدة: تحقيق ودراسة: أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، المغرب، ط1، 1416هـ- 1995م.

43- روضة التعريف بالحبّ الشّريف: الوزير لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر العربي، (د.ط)، (د.ت).

44- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، حققه ووضع مقدمته وحواشيه: محمد عبد الله عنان، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة– مصر، ط1، 1401هـ- 1981م.

45- سلسلة الأحاديث الصّحيحة: الألباني، جمع وتجريد أبو عبيدة شهور بن حسن آل سعان، مكتبة المعاجم للنّشر والتوزيع، الرياض- السّعودية، (د.ط)، (د.ت).

46- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي رحمه الله تعالى، ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضيعه وشرح ألفاظه

وحمله وخرج أحاديثه في صحيح مسلم، ووضع فهارسه: مصطفى ديب البغا، دار الهدى: عين مليلة- الجزائر، (د.ط)، 1992م.

47- طوق الحمامة في الألفة والآلاف: ابن حزم الأندلسي، ضبط خطّه وحرّر هوامشه: طاهر مكّي، دار المعارف القاهرة، مصر، ط2، 1977م.

48- ظهر الإسلام: أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (د.ط)، 1962.

49- العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث، بيروت- لبنان، (د.ط)، (د.ت).

50- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع: عبد الفتاح بسيوني فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط2، 1425هـ-2005م.

51- علم البيان دراسة تحليلة لمسائل البيان: بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسّسة المختار للنّشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 1425هـ-2004م.

52- عيار الشعر: محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي(ت.322هـ)، تحقيق: طه الجابري وزغلول سلام، شركة فنّ الطّباعة، القاهرة- مصر، (د.ط)، 1956.

53- الفلسفة والأخلاق عند لسان الدين بن الخطيب: عبد العزيز بن عبد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط2، 1403هـ- 1983.

54- فنون النّثر الأدبي في آثار لسان الدّين بن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية: محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 2004.

55- في الأدب الأندلسي: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق- سوريا، ط1، 2000م.

56- قاموس الأمثال العربية: عفيف عبد الرّحمن، مكتبة ناشـرون، لبنـان، ط1، 1998م.

57- القاموس المحيط: مجد الدين يعقوب محمد الفيرزبادي، إعداد وتقـديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، مجلّد 2، ط1، 1417هـ-1997م.

58- قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيـري في الآداب والسـنة (ت.364هـ)، تحقيق: هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، بـيروت- لبنان، ط1، 1994.

59- قضايا النقد الأدبي، الوحدة، الالتزام، الوضوح والغمـوض، الإطـار والمضمون: بدوي طبانة، دار المريخ للنشـر، الريـاض- السـعودية، (د.ط)، 1404هـ- 1984م.

60- كشاف القناع: عـن مـتن الإقنـاع، منصـور يـونس البـهوتي (ت.1051هـ)، مكتبة النصر الحديثة، الرياض- السـعودية، (د.ط)، (د.ت).

61- لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكـرم بـن منظـور الإفريقي، دار صادر بيروت لبنان، مجلّد 2، ط3، 1414هـ- 1994م.

62- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: أبو الفتح ضياء الدين نصـر الله محمد بن محمد عبد الكريم بن الأثير الموصلي (ت.637هـ)، المكتبـة العصرية، بيروت- لبنان، ط2، 1411هـ-1990م.

63- محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والاختبار: محي الدين بن عربي، دار صادر بيروت- لبنان، مجلد 2، (د.ط)، (د.ت).

64- المعجم الأدبي: عبد النور جبور، دار العلم للملايين، بيروت- لبنـان، (د.ط)، 1987.

65- معجم البلدان: الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر بيروت، (د.ط)، (د.ت).

66- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب، مكتبـة لبنـان ناشرون، بيروت- لبنان، ط2، 1996.

67- المعمرون والوصايا: أبو عامر سهل بن محمد السجستاني (ت.135هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربيـة، مصـر، (د.ط)، (د.ت).

68- المفضليات: المفضل محمد بن يعلى بن عامر بن سالم الضـبي الكـوفي (ت.168هـ)، تحقيق: قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بـيروت- لبنان، ط1، 1998م.

69- المقتبس: ابن حيان القرطبي، حققه وقدم له وعلق عليه، محمود علـــي مكي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإســـلامية، (د.ط)، 2001.

70- مقدّمة ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: ابن خلدون، تحقيق: محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، ط1، 1426هـــ- 2005م.

71- ملامح يونانية في الأدب العربي: إحسان عبـــاس، المؤسســـة العربيـــة للدراسات والنشر، بيروت— لبنان، ط1، 1977.

72- مواكب الأدب عبر العصور: عمر الدقاق، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق- سوريا، ط1، 1988م.

73- النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس: مضامينه وأشكاله، علي بن محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1990.

74- النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي دراسة تحليلية: مي يوسف خليل، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القـــاهرة- مصـــر، (د.ط)، (د.ت).

75- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب: عبد الحليم حسن الهروط، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2006- 1426.

76- النثر الفني في العصر الجاهلي: هاشم صالح مناع، دار الفكر العـــربي، بيروت- لبنان، ط1، 1993م.

77- النّثر الفنّي في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري: رضا عبـــد الغني الكساسبة، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الاسكندرية- مصر، (د.ط)، (د.ت).

78- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان: إسماعيل بن يوسف بن محمـــد بن الأحمر، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت- لبنـــان، (د.ط)، 1967.

79- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد محمد المقري، تحقيـــق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنـــان، (د-ط)، 1408هـــــ- 1988م.

80- النقد الجمالي وأثره في النقد العربي: روز غري، دار الفكـــر العـــربي، بيروت- لبنان، (د.ط)، 1993.

81- نهج البلاغة الجامع لخطب وحكم أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، جمع الشريف الرضا محمد بن أبي أحمد الحسين وعز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المداني الشهير بن أبي الحديد رحمهـــم الله جميعا، دار الكتب العربية، مصر- القاهرة، مجلد: 3، (د.ط)، (د.ت).

82- نيل الأوطار: شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد المختار، محمـــدى بن علي بن محمد الشوكاني (ت.1255هـــ)، دار الحديث، القـــاهرة- مصر، (د.ط)، 1297هـــ.

83- الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيـا (64-897هـ، 683-1492م) دراسة نصوص: محمد ماهر حمادة، مؤسسـة الرسـالة، سوريا، ط1، 1400هـ— 1980م.

84- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين: محمد علي مكـي، مكتبـة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، ط1، 1424هـ— 2004م.

85- وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية، روناك توفيق علي النورسي، دار الكتب العلمية بيروت— لبنان، ط1، 2007م.

86- الوصايا لابن عربي: محي الدّين أبي عبد الله الحاتمي الطّائي الأندلسـي المعروف بابن عربي (ت.638هـ)، مؤسسة الأعلمـي للمطبوعـات، بيروت- لبنان، (د.ط)، (د.ت).

87- الوصايا والأوقاف في الفقه الإسلامي: محمد كمال الدين إمام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشـر والتوزيـع، بـيروت- لبنـان، (د.ط)، 1418هـ-1998م.

88- وصايا وتوقيعات أندلسية: من خلال مخطوط رونق التحبير في حكـم السياسة والتدبير لأبي القاسم محمد بن أبي العلاء بن سمـاك العـاملي، تقديم نجاة المريني، كلية الآداب، الرباط— المغرب.

الـدّوريـات:

89- الأدب والبناء الحضاري حسن الأمراني: منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانيةرقم 29، وجدة- المغرب، سلسلة بحـوث ودراسـات -8- 1999.

90- إضاءات حول تـراث الغـرب الإسـلامي وتاريخـه الاقتصـادي والاجتماعي: القادري بوتشيش، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، مارس 2002.

91- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد: جودة عبد الرحمان هلال، مدريد، إسبانيا، العدد 3، المجلد 1، 1374هـ-1985م.

الرّسائل الجامعية:

92- شعر السجن في الأندلس موضوعاته وظواهره الفنية: إعداد الطالب: مصطفى الغديري، إشراف الأستاذ: عبد السلام الهراس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فـاس- المغـرب، 1408- 1409هـ/ 1987- 1988م.

عنوان الاومقع:

93- attarikh.alarabi.ma.

94- alsrdaab.com.

95- uqu.edu.sa

96- alemam.alsajad.co


فهرس المحتويات

المدخل

مفهوم الوصية لومحة تاريخية تط نعوّرها يف الأدب العربي (من العصر اللهاجي لإى العبّاسي)

الفصل الأول

أغراض الوصيّا يف ةلأدب الأدلنسي

الفصل الثاني

موضوعات الوصيّة عند لسان الدّيا نن بلخطيب

الفصل الثالث

صويّة لسان الدّيا نن بلخطبـي لأولاده
- أنموذجا تطبيقيا -

ملخّــص

يعالج هذا البحث موضوع الوصية في الأدب الأندلسي، هذا الفن القديم الذي خاض يه االي لي لصون اتتو اصا ىجره لي جد اا،وفي استهيءت الي ر ي الكشف عن أهم ا غراض السياسية والتربوية و الاجتماعية التي طرقتها الوصية ي الأدب ا ندلسي،مع محاولة إبراز السمات الفنية والقيمة ا لححارية التي تضمنتها،وقد ببذت وصية لسان الدين بن الخطي ولا بده أنموذجا لها.

الكلمات المفتاحية: الوصية- التواصل- السمات الفنية- القيمة ا لححارية- وصية لسان الدين بن الخطي ولا بده أنموذجا.

SOMMAIRE

Cette recherche porte sur l'étude de la recommandation dans la littérature Andalouse, cet art ancien dans lequel les Andalous ont écrit afin d'être préserver à travers les générations. Cette étude a également pour but de révéler les objectifs politiques, éducatifs et sociaux cités dans la recommandation dans la littérature Andalouse et aussi pour mettre en évidence les caractéristiques techniques et sa valeur culturelle et civilisationnelle, et ceci à travers l'étude de la recommandation de Lissan Eddine Ibn el Khatib à ses enfants comme exemplaire.

Mots clés : Recommandation-préserver-caractéristiques techniques-valeur civilisationnelle-recommandations de Lissan Eddine Ibn el Khatib à ses enfants exemplaire.

SUMMARY

This research addresses the subject of the recommendation in the andalousian literature, this ancient art which wrote the andalousians to be continued in the generations. This study has also the but of detection of the political, educational and social objectives treated by the recommendation in the literature andalousian, with an attempt to highlight the technical characters, civilizationnal and cultural value including inside and we have taken the recommendation of Lissan Eddine Ibn el Khatib for her children as a model.

Key words: Recommendation-continued-technical characters-civilizationnal value-recommendation of Lissan Eddine Ibn el Khatib for her children a model